دراسات في: التراث العربي

سلسلة تصدرها وزارة الإعلام
في الكويت

معاجم على الموضوعات

تأليف
دكتور حسين نصار

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

مطبعة حكومة الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

هذه حلقة جديدة فى سلسلة « **دراسات فى التراث العربي** » كتبها **الاستاذ الدكتور حسين نصار** (العميد السابق لكلية الآداب بجامعة القاهرة) وصلة الدكتور نصار بالتأليف المعجمي عريقة وثيقة ، وكتابة « **المعجم العربى** » جاء فى طليعة الدراسات التي عنيت بهذا الموضوع ، ولم يصرفه صدوره منذ أكثر من ثلاثين سنة عن مواصلة البحث فى هذا الباب ، وكتابه الذى نقدمه اليوم يتابع فيه مسيرته مع المعجم العربي من خلال طائفة من المؤلفات اللغوية التي تجمعها صفة « معاجم الموضوعات » شملت كتب : « **الابل** » و « **الغنم** » و « **النبات** » و « **المواضع** » و « **الفروق** » .

وانا لنرجو أن يتصل البحث ، فيشمل سائر الكتب التي وضعها اللغويون فى امثال هذه الموضوعات ، وسيبقى القارىء على أمل اللقاء بالدكتور حسين نصار مع الجديد فى هذا الموضوع الذي ارتبط باسمه ، لما أولاه من العناية والاهتمام .

مصطفى حجازى
رئيس قسم التراث العربى
بوزارة الاعلام

الكويت فى : غرة صفر سنة ١٤٠٥ هـ
= ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩٨٤ م

كلمة

احتفل العرب والمسلمون ، منذ النصف الثاني من القرن الهجرى الأول ، باللغة العربية ، احتفالا عظيما ، واحاطوها بعناية بالغة ، اذ أزعجهم ما أخذ يتسرب اليها من لحن ، وحببت اليهم الجماهير الداخلة فى الاسلام ، والمنضوية تحت لواء الخلافة الاسلامية ، من الشعوب غير العربية ، حببت اليهم أن ييسروا السبل الى تعلم العربية : لغة الدين والدولة .

وأنتج ذلك ما عرف يومئذ بعلم العربية ، وما نعرفه نحن بعلمى النحو واللغة .

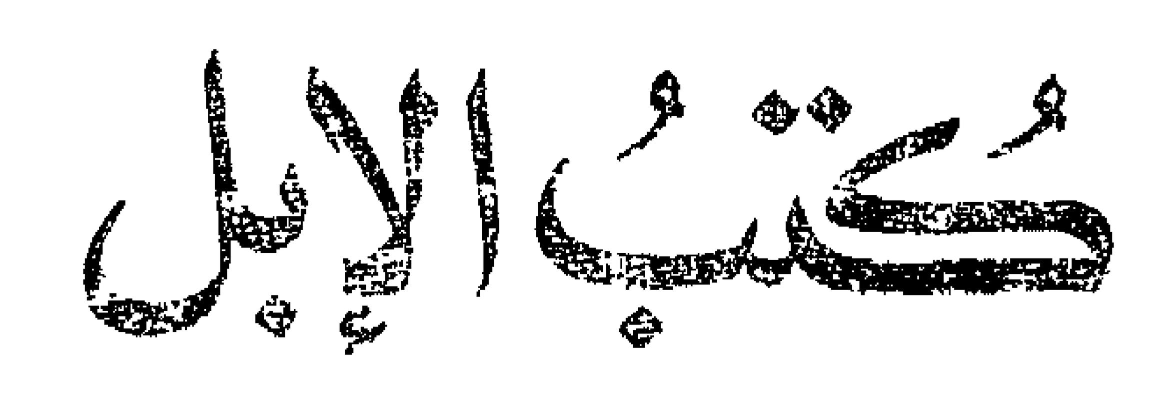
وتجلى الاشتغال بعلم اللغة فى ظواهر شتى : من جمع للشعر ورواية له ، ونقد لغوى ، وعمل مختارات شعرية ، ثم محاولات لتدوين كتب لغوية خالصة . وكان من الكتب اللغوية : معاجم على الالفاظ ، ورسائل عن ظواهر فردية ، واخرى على المعاني والموضوعات .

وكان الصنف الأخير من الرسائل من أقدم ما ألف الدارسون فى اللغة العربية ، ان لم يكن أقدمها . وكانوا يجمعون فى الكتاب منها الألفاظ التي تنتمي الى موضوع واحد . فأصدروا كتبا خاصة بالنبات ، والحيوان ، والجماد ، بل باصناف منها ، كالخيل ، والابل ، والحشرات ، والمواضع ، وغيرها .

وأنتج اشتغال اللغويين بأنواع الحيوان خاصة كتبا غير الكتب المفردة لهذه الانواع ، انما هي كتب تعالج الالفاظ التى تطلق على اعضاء تشترك فيها أنواع الحيوان ، وتأخذ فى كل نوع لفظا خاصا ، وتلك هى ما سموه « كتب الفروق » .

ولما كنت قد عالجت عددا من هذه الكتب فى القسم الأول من كتابى « المعجم العربي » فانني أود ان اتناول عددا آخر فى هذا الكتاب .

(المؤلف)


كُتُب الإبل

قامت حياة الانسان في بعض المجتمعات الأولى — وما زالت تقوم في المجتمعات غير مكتملة التطور — على حيوان ما ، يتخذ منه إنسان ذلك المجتمع طعــامه وشرابه ومأواه وراحلته ، ويجعله وحدته القياسية التي يعطي لكل فــرد من أبناء مجتمعه قيمته وفق ما يملك منها . ويختلف ذلك الحيوان ، باختلاف البيئات وما تفرضه من حاجات ، فالبيئات الرعوية والصحراوية لا يســد حاجاتها إلا الناقة ، والبيئات الزراعية يلبي طلباتها البقرة أو الجاموسة ، والبيئة الثلجية تفرض ما شابه الرنّة(١) .

وكان عماد العربي الناقة ، التي تعطيه اللبن غــذاءه الأول ، وتنقله من موضع الى آخــر ، وتهبه جلدها ووبرها ليتخذ منهما ما شاء ، وتحفظ له المــاء في كرشها إن نفد منه الشراب ، واضطرته الحاجة إلى البحث عنه في جوف ناقته . فلا عجب أن سمى العربي الإبل : المــال . ولا عجب أن وضعها القــرآن الكريم نصب أعين العرب مرارا ، يشــيد عن طريقها بنعم الله عليهم ، ويلفتهم الى ما في خلقها من آيات تدعو الى الاعتبار والتفكر . ولا عجب ان كانت الناقة معجزة النبي العربي : صالح ، عليه الصلاة والسلام . ولا عجب أن تشغل الناقة المكان الكبير الذي شغلته في شعر عرب الجاهلية والاسلام . .

ولا غــرو إذن أن يؤلف العرب في الإبل أول ما يعمدون الى التأليف ، فيخص اللغويون الإبل بالرسائل اللغوية ، منذ وقت مبكر ، ويعالجون بعض أمور متصــلة بها أيضا ، كالرَّحْل والقَتَب اللذين ألّف فيهما أبو عبيدة معمر

---

(١) نوع من الغزال يعيش في الأقطار الشمالية .

ابن المثنى(١) (٢١٠ هـ) وأبو زيد سعيد بن أوس الانصارى(٢) (٢١٥ هـ) ، والبُرَّى والخَزائم التى ألف فيهما الثانى منهما (٣) .

وأول من أشار أصحاب التراجم إلى أنه تعرض للإبل في كتاب لغوى وفاةً : النضر بن شميل (ت ٣٠٤) . فقد أفرد لها الجــزء الثالث من كتابه الكبير « الصفات » الذى كان في خمسة أجزاء (٤)، كلها ما زال مفقودا . .

وما زلنا أيضا نفتقد كتاب الإبل الذى ألفه أبو عمرو إسحاق بن مُــرار الشيبانى (٢٠٦) (٥)، والذى ألفه أبو عبيدة (٦)، وكتاب أبى زيد الأنصارى(٧) وكان الأخير أحد مراجع الجوهرى في صحاحه ؛ فقد جاء في مادة « عمثل »: « قال أبو زيد في كتاب الإبل : العَمَيْثَلَة : الناقة الجسيمة » . وتلقـاه محمد بن خير (٨) بثلاثة طرق عن أبى على القالى ، الذى أخذه عن ابن دريد ، عن أبى حاتم السجستانى عن المؤلف . ولا شك أن أبا عبيد القاسم بن ســلام اغترف منه كثيرا ، فهو كثير الذكر لاسم أبى زيد بين من روى عنهم . .

ونسب القدماء إلى أبى سعيد عبد الملك بن قُريب الأصمعى (ت ٢١٦) كتابا عن الإبل(٩) . ولكن الدكتور أوغُست هفنر Dr. August Haffner عـثر على كتابين منسوبين إلى الأصمعى باسم « كتاب الإبل » ، فحققهما ونشرهما في مجموعته « الكنز اللغوى في اللسان العربى » عام ١٩٠٣ .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١٩ : ١٦١ .

(٢) ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه ٣٧١ .

(٣) المرجـع نفسه .

(٤) ابن النديم : الفهرست ٥٢ (الطبعة المصرية) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢ : ٢١٤ .

(٥) القفطى : انباه الرواة ١ : ٢٢٧ . حاجى خليفة : كشف الظنون ٥ : ٣٠ .

(٦) ابن النديم : الفهرست ٨ . ياقوت : معجم الأدباء ١٩ : ١٦١ . السيوطى : بغية الوعاة ٣٩٥ .

(٧) ابن النديم : الفهرست ٨١ . السيوطى : البغية ٢٥٥ .

(٨) فهرسة ما رواه ابن خير عن شيوخه ٣٧١ .

(٩) ابن النديم : الفهرست ٨٢ . : فهرسة ابن خير ٣٧٤ . السيوطى : البغية ٣١٤.

وأحد الكتابين عُثر على عدة نسخ منه ، وهو متصل الرواية عن المؤلف ، فقد أعلن في مطلعه أن عبد الرحمن بن عبد الله المعروف بابن أخي الأصمعي أخذه عن عمــه قراءةً عليه ، ثم قــرأه عليه محمد بن العباس اليزيدي، وقرأه على اليزيديّ عمر بن محمد بن سيف ، وعلى ابن سيف الحسن بن محمد المقــري الشاموخي ، وعليه المبارك بن عبد الجبار الصيرفي ، الذي قرأه عليه صــاحبه موهوب بن أحمد الجواليقي (١) .

ويقع هذا الكتاب في واحد وعشرين صفحة (من ١٣٧ الى ١٥٧) . ويبتدىء بفصل لا عنوان له . يشغل تسع صفحات (١٣٨ — ١٤٧) . ويفتتح بضِراب الابل وضُروبه ، وحَمْلها والمراحل التي تمــر بها في أثنائه ، ونتاجها وأجناسه وولدها وما يطلق عليه في أطوار عمره . ويبين من السياق أن المؤلف يحاول أن يلتزم هذا الترتيب ، ولكنه يفلت من بين يديه أحيانا ، فتضطرب بعض المــواد وتتداخل، وتنقطع بعض المراحل وتتباعد، فيفصل بينها ما ليس منها ، وتتكرر . ثم يجمع بعض الصفات المختلفة في الإبل ، والتي لا تندرج تحت عنوان واحد، لأن منها الأوصاف الجسدية والخلُقية ، وما يتصل بعمرها وسَيْرها وطريقة أكلها وشربها وأكثرها يدور حول نتاجها وحلبها وما تأتيه في الأمرين من أعمال.

ويشغل الفصل الثاني نحو ثلاث صفحات (١٤٧ — ١٤٩) وله عنوان مذكور يبين أنه خاص « بسَيْر الابل » . ولا يتكلف فيه المؤلف ترتيبا ، ولكنه يحاول في بعض المواضع أن يجمع بعض الصفات المتدرجة . وينتقل من الأدنى إلى الأعلى . يقول(٢) : « العَنَق : الفسيح والمُسْبطِرّ ، قال أمية بن أبي عائذ الهــذلي :

---

(١) ذكر ابن خير في فهرسته (ص ٣٧٥) رواية أخرى للكتاب ، فقد أخذه هو عن أبي عبدالله محمد بن سليمان النفزي ، عن خاله أبي محمد غانم بن وليد المخزومي عن أبي عمر يوسف ابن عبدالله بن خيرون السهمي عن أبي القاسم أحمد بن أبان بن سيد، عن أبي على القالي عن أبي بكر بن دريد ، عن أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي .

(٢) ص ١٤٧ .

ومِنْ سَيْرِها العَنَــق المسبطرْ رُ والعَجْرَ فِيــَّةُ بعد الكلال

فاذا ارتفع عن العنق قليلاً قيل : يمشي التــَّزَيُّد . وقال الشاعر (وهو الاعشى) :

وأَتْلَعُ نهّاضٌ إذا ما تَزَيـَّدتْ به مَدَّ أثناءَ الجَديلِ المُضَفَّرِ

فاذا ارتفع عن ذلك فهو : الذميل ، يقال : ذمل يذمل ذميلا . فإذا قارب الخطو ودارك النقال فهو : الرتك ، يقال : رتك يرتك رتكا ورتكانا » .

والفصل الثالث عن « ألوان الإبل » ، ويشغل قريبا من صفحتين (١٤٩ — ١٥١) ويماثل الفصل السابق في عـدم الترتيب سوى بعض المواضع الجـزئية التي يتيسر له فيها ذلك يقول (١) : « يقال : بعير أحمر ، وناقة حمـراء . فإذا بولغ في نعت حمرته قيل : كأنه عِرْق أَرْطاة . ويقال : أَجْلَد الإبـل وأصبرها الحمر . فإذا خاط (٢) الحمرةَ قُنوءٌ فهو : كُمَيت بَيِّن الكُمْتة . وناقة كُمَيت بَيِّنة الكمتة . فإذا خالط الحمرةَ صَفارٌ (٣) قيل : أحمر مُدَمّى . وقال حُمَيد بن ثَوْر :

وصار مُدَمّاها كميتا وشُبِّهتْ فُروجُ الكُلَى منها الوِجارَ المهدَّما» .

وعنوان الفصل الرابع : « أسماء الأَظْماء » ، ويشغل نحو صفحتين (١٥١ — ١٥٢) . وبدأه بتعريف الظِّمْء ، ثم التزم الترتيب التصاعدى التزاما تـاماً ، فكان أحسن الفصول تنظيما وعدم استطراد . قال(٤) : « الظِّمء : ما بين الشَّرْبتين . ويقـال : زاد الناس في أظمائهم . ويقال : ما بقي من فـلان الا ظمء حمار . فأول الأظماء وأقصرها : الرعرعة ، وهى أن تدعها على الماء تشرب كلما شاءت . وإذا شربت كل يوم فاسمُ ذلك الظمء : الرِّفْهُ . ويقال : إبل بني فلان تَرِد رِفْها . قال أوس بن حَجَر :

---

(١) ص ١٤٩ .

(٢) في المخصص : « خالط » وهو الصحيح .

(٣) في المخصص : « فان خالط الحمرة صفار » ، والارجح أن يكون « صفرة » في كليهما .

(٤) ١٥١ .

يقي صَداك ومُمْسَاه ومُصْبَحه رِفْها ، وَرمْسُك محفوفٌ بأظلال
فإذا شربت يوما غدوة ، ويوما عشية ، فاسم ذلك الظمء : العريجاء . . » .

والفصل الخامس ، الذى يشغل أربع صفحات (١٥٢ — ١٥٦) . « لأَدْواء الإبل » . ولم أتبين له فيه ترتيبا ما ، وإن كان تداعى المعانى يحمله في بعض المواضع على جمع نوع متقارب من الأمر ، ولكنه لا يستقصى في هذا الجمع ، إذ لا يتحرج من وضع مرض أو أمراض من النوع نفسه في مواضع منفصلة . يقول (١): « يقال اذا أكلت الرِّمْث ، فخَلَت عليه ، فاشتكت بطونها : تركت الإبل قد رَمِثت رَمَثا . واذا أكلت العَرْفَج ثم شربت عليه الماء فاجتمع العرفج عُجَرا في بطونها فاشتكت عليه بطونها ، قيل : قد حَبِجت تَحْبَج حَبَجا . وإذا أكلت فأكثرت فانتفخت بطونها ولم يخرج عنها ما في بطونها ، قيل : قد حَبِطت تَحْبَط حَبَطا ، وهو بعير حَبِط — وناقة حَبِطة . . » .

وآخر الفصول في نصف صفحة (١٥٧) ، وخاصٌ « بأسماء عدد الابل — أى جماعاتها — والتزم فيه ترتيبا تصاعديا لم يحد عنه . قال(٢) : « الذَّوْد : ما بين الثلاثة إلى العشرة . والصِّرْمة : القطعة التى ليست بالكثيرة . والصُّبَّة : فوق ذلك الى العشرين إلى الثلاثين إلى الأربعين . . » .

وغلب على المؤلف في الفصول : الثالث والرابع والخامس أن يقدم وصف الحالة التى يريدها من الإبل ، ثم يتبعها باللفظ الذى تطلقه اللغة على تلك الحالة . وغلب عليه في الفصل السادس تقديم اللفظ وإتباعه بتفسيره . أما الفصلان الأول والثانى فيختلط فيهما الأمران ، إذ تغلب الظاهرة الأولى على صدريهما ، والثانية على عَجُزيهما .

وقد يكون اللفظ الذى يقدمه اسما ، أو فعلا ، أو صفة . فإذا كان اسما أعقبه بالتفسير ، ثم بالفعل الماضى فالمصدر ، في كثير من الأحيان . ويختم بالشاهد

(١) ١٥٣ .
(٢) ١٥٧ .

في أحيان قليلة . وإذا كان فعلاً ذكر المصدر منه ، ثم أعقبه بالتفسير ، فالشاهد إنْ وجد ، ولا ينطبق هذا القول على الفصل الأخير القصير ، لأنه التزم فيه الإيجاز فاكتفى بإيراد اللفظ ثم تفسيره . وأتى بشاهد شعرى واحد على آخــر لفظ . وإذا كان اللفظ المقدم صفة أعقبه بالتفسير ، والشاهد إنْ وجد ، واكتفى بذلك..

وإذا ما قدم الحالة المرادة ، أعقبها في أحيان بالاسم أو المصدر والصفة منهما ، وفي أحيان بالفعل والمصدر ، وأضاف إليهما أحيانا الصفة . .

وكان يورد للحالة الواحدة لفظا أو أكثر ، ســواء أكانت هذه الألفاظ متحدة المــادة أو مختلفتها . وعندما يورد الفعل يذكر المــاضى والمضارع في أكثر الاحيان ، ويحذف الأخير في أقلها ، ويقدم المــاضى عند اجتماعهما . وعندما يذكر الصفة يأتى في بعض الفصول بالمفرد والجمع منها ، وفي بعضها بالمذكر والمؤنث ، ويُغفل ذلك في فصول وأماكن أخرى . ويذكر للفظ الذى يعالجه في أحيان قليلة معنى آخر غير المعنى المتعلق بالإبل ، يشير في أحيان أقــل الى اختلاف اللغات فيه . .

والشواهد قليلة ، ويتألف أكثرها من بيت واحد ، وفي مواضع معــدودة من بيتين ، وربما أتى على اللفظ الواحد بشاهدين ، ويعزو بعض الشواهد إلى قائله ، ويهمل بعضها الآخر ، ويذكر اسم من روى له بعضها ، بل قد يورد له خبراً ما . وتضم هذه الشواهد الشعر ، والأمثال والأقوال السائرة . ويعلق على بعضها بتفسير بعض الغامض فيه ممــا لا صــلة له بالإبل ، ولا يأبه لذلك في بعضها الآخــر .

أما الكتاب الثانى المنسوب إلى الأصمعى أيضا ، ووجده المحقق في مكتبــة فينا بالنمسا ، فأكثر من ثلاثة أمثال الأول ، إذ يشغل إحدى وسبعين صفحة (٦٦ — ١٣٦) ولكن روايته مجهولة لم يصرح بها . وجميع فصول الكتاب الاول موجودة في الثانى مع بعض تغييرات وإضافات . جمع ما في الفصل الأول من ألفاظ متصــلة باللبن والحلب ، ووضعها في فصل خاص بها ، أطلق عليــه

« غزارة الإبل » . وزاد في آخر الكتابين فصلين عن الوسوم التي تُعلَّمُ بها الإبل وأصواتها . وغير ترتيب الفصول ، فصارت على النحو التالي :

١ ــ الفصل العام ، ولا عنوان له ، في حوالى ٢٩ صفحة (٦٦ ــ ٩٤) .

٢ ــ غــزارة الإبل ، في ٢١ صفحة (٩٤ ــ ١١٥) .

٣ ــ أسماء الإبل ، يريد في أعدادها المختلفة ، في صفحتين (١١٥ــ١١٧) .

٤ ــ أدواء الإبل ، في ست صفحات (١١٧ ــ ١٢٣) .

٥ ــ سَير الإبل ، في أربع صفحات (١٢٣ ــ ١٢٧) .

٦ ــ ألوان الإبل ، في صفحة ونصف (١٢٧ ــ ١٢٨) .

٧ ــ أظماء الإبل ، في أربع صفحات (١٢٨ ــ ١٣٢) .

٨ ــ المواسم والتزنيم ، في قريب من ثلاث صفحات (١٣٣ ــ ١٣٥) .

٩ ــ الفصل الأخير ، ولا عنوان له ، وكله عن أصوات الأبل ، وهو في نحو صفحة ونصف (١٣٥ ــ ١٣٦) .

ويكاد الكتابان يتماثلان في فصل الألوان ، فلا خلاف بينهما ، غير أن كلاً منهما ذكر مصــدراً غير موجود في الآخر ، وأن الكتاب الصغير أجرى بعض التغيير والإضافة والاختصار في شرح أحد الشواهد الشعرية . جاء في الكتاب المطول(١) : « يقال : بعير أحمر ، وناقة حمراء . وإذا بولغ في نعت حمرته قيل : كأنه عرق أرطاة . ويقال : أجلد الإبل وأصبرها الحمر . فاذا خلط (١) الحمرةَ قنــوء فهو : كميت . فاذا خلط الحمرة صفرة قيل : أحمر مدمّى . قال حميد بن ثور :

وصار مدمّاها كميتــاً وأشبهت قُروحَ الكُــلي منها الوجار المهدما» .

وتتقارب فصول الســيْر والأظماء والأعداد فيهما . ولكن الكتاب القصير

(١) ١٢٧ .

يحتوى على مادة في كل منها ، ومصدرين في الفصل الأول . وتمهيد لأحد الشواهد وكل ذلك غير موجود في الكتاب الكبير . ولكن هذا بدوره يضم في آخر الفصلين الاول والثالث مواد قليلة وفي آخر الثانى مواد كثيرة ، وفي تضاعيف الفصول كثيرا من الشواهد ، والمواد والمصادر والأفعال المضارعة والتعليقات على الشواهد ، والمعانى الإضافية ، وبعض الإطالة في التفسير . ولا أثر لكل هذه الإضافات في الكتاب القصير . ولكننا إذا أغفلنا هذه الإضافات وجدنا ترتيب الفصول واحداً في الكتابين .

جاء في الكتاب الطويل(٢) : « الذَّود : ما بين ثلاث إلى العشر . ومَثَلٌ من الأمثال : « الذود الى الذود إبل » . والصرمة : قطعة خفيفة قليلة ما بين العشر الى بضع عشرة . ويقال للرجل إذا كان خفيف المال : إنه لمُصْرِم . قال المَعْلُوط :

يَصُدُّ الكرام المُصْرِمون صَوَاءَها وذوالحق عن أقرانها سيَحيد

أى يصيرون إلى غيرها ، وذو الحق يحيد عنها ، وذلك أنها لا يصاب منها ولا يُقْرَى فيها ضيف. والقَرَن : الحبل يُشَدّ به القَرينتان ، فإذا قال : يصد عن القَرَن ، علم أنه يصدُّ عنها . والصُّبَّة : فوق ذلك . ويقال : على آل فلان صبة من الابل : وهى من العشرين إلى الثلاثين إلى الاربعين . قال بعض الشعراء :

إنى سيُغنينى الذى كَفَّ والدى قديما ، فلا عُرْىٌ لدىَّ ولا فَقْرُ
بصُبَّةِ شَوْلٍ أربعين كأنها مَخاصر نَبْعٍ لاشَروفٌ ولابِكْرٍ».

أما فصل الأدواء فأصابه تغيير كبير ، فالترتيب في الكتابين مختلف تمام الاختلاف : تتفق أجزاء من الفصلين في السياق ، ولكن أحدهما يكون في أول

---

(١) انظر الملاحظة في ص ٣٨٦ (لجنة المجلة) .

(٢) ١١٥ .

الفصل من كتاب ، على حين يكون مقابله في منتصف الفصل أو آخره من الكتاب الثانى . كذلك نجـد في الكتاب الصغير مواد ، ومصادر وأفعالا وشواهد غير مذكورة في الكبير ، كما نجـد في هذا فيضـا من المواد ، والصيغ والشواهد والتعليقات عليها ، غير الموجودة في الصغير .

والظاهرة السابقة نراها في الفصل العام الذى سبق أن عرفنا أنه قسمه في الكتاب المطول إلى فصلين ، ونضيف أن الفصل الخاص باللبن وغزارته وقلته يختم بعـدة أوصاف لا تتصل باللبن ، ولكنها كانت في ذلك الموضع من الكتاب المختصر ، فبقيت على ما كانت عليه بعد التقسيم ، وأتت في فصل لا تنتمى إليه .

وكل ما رأيناه من ظواهر في الكتاب القصير نراه في وضوح في الكتاب الطويل ، ولكن الشواهد تكثر وتطول وتتنوع . فيورد على اللفظ الواحد أحيانا ثلاثة شـواهد(١) . وتألف الشاهد مرة من أربعة أبيات(٢) وأحيانا من ثلاثة (٣) هذا إذا لم نعـد أشـطر الرجز أبيـاتا . وأتى بشـواهد من الشعر ، والأمثال والأقوال السائرة والأخبار وأكثر من النثر .

وليس في الكتاب المطول ما يجعل الدارس يقطع برأى في مؤلفه ، أو يجعلـه ينكره على الأصمعى . حقـًّا نُسب الشاهد التالى :

تَهْوِى رؤوسَ القاحِراتِ القُحَّرِ ... إذا هَوَتْ بين اللُّهَا والحَنْجَرِ

الى رؤبة في الكتاب الكبـير (٤) وهو الصحيح (٥) والى ذى الرمة في الكتاب الصغير (٦) ولكن ذلك مرجعه الرواة او النساخ في الغالب ، وكذلك مرجع أكثر هذا النوع من الاختلاف . .

---

(١) ٦٩ ، ٧٣ ، ٨٠ ، ٩١ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٢٣ ، ١٣٦ .
(٢) ٩٣ .
(٣) ٨٤ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ .
(٤) ٧٧ .
(٥) ديوانيـة ٦٠ .
(٦) ١٤٣ .

وأهم من ذلك الاختلاف في تفسير لفـظ العَرْج ، إذ قيـل في الكتاب القصير (١) : » الابل اذا كثرت فبلغت مائتين ، وقيل في الطويل (٢) : « اذا بلغت الإبل خمس مائة إلى الألف » . ولست على يقين من سبب هذا الاختلاف.

وجميع ما في الكتاب الكبير من زيادات موجود في الكتب اللغوية . نجـد بعضها منسوبا إلى من رواه من اللغويين ، وأكثرها دون نسبة . وقد نسب ابن منظور تفسير لفظ « غضْبَى» إلى الزجّاجي . فقد جاء في كتاب الاصمعى(٣) : « يقال : أتانا بغضبى ، معرفة لاتُنوَّن . وغضبى : مائة من الإبل . قال الشاعر :

ومُستخلِفٍ، من بعد غضبي، صريمةً فأَحْرِبـه لطول فقرٍ وأَحْرِبـا

يريد : أَحْرِبْ بما أصابه : اى دخل عله حَرَب . قال : وسمعت ابن أبى طرفة يقول : والله لا أسمح به وأَحْرِبا ، أراد : أَحْرِبَنْ ، بالنون المخففة ». وجاء في اللسان (٤) : » —

« غضبى : اسم للمائة من الابل ، حكاه الزجاجى في نوادره ، وهى معرفة لا تنون ، ولا يدخلها الالف واللام . وأنشد ابن الاعرابى :

ومستخلف، من بعدغضبى، صريمةً فأحْرِبه لطول فقر وأحريـا

وقال : أراد النون الخفيفة ووقف» . وتكاد الفقرتان تتماثلان ، وربما أخذه الزجّاجى عن الأصمعى ، أو أخذه الاثنان عن لغوى واحد ، أو اتفقا فيه عرضا .

وهناك نصٌّ آخر أكثر تماثلا . جاء في الكتاب (٥) : « فإذا بلغ الهـديرَ فأولُه الكَشيش ، يقال : كَشَّ يكِش كَشيشاً . قال رؤبة :

* هَدَرْتَ هَدْراً ليس بالكَشيش *

(١) ١٥٧ .

(٢) ١١٦ .

(٣) ١١٦ .

(٤) مادة غضب .

(٥) ١٣٥ .

فاذا ارتفع عن ذلك قيل : كَتَّ يكِتُّ كَتيتا . فاذا أفصح بالهدير قيل : هَدَرَ يَهْدِر هديرا . فاذا جفا صوته ورجع قيل : قرقر يقرقر قرقرة . قال حميد بن ثور .

فجاء بها الرُّوادُ يحجز بينها سُدًى بين قَرْقار الهَدير وأَعْجَما

سُدًى : ليست بمربوطة . فاذا جعل يهدر هدرا كأنه يعصره قيل : زغديزغد زغدا . قال الراجز (وهو ابو نخيلة) :

بَخٍ وبَخْباخِ الهَدير الزَّغْدِ

فاذا جفا صوته كأنه يَقْلَع قلعا من جوفه قيل : قَلَخَ يَقْلَخ قَلْخا . قال الراجز :

قَلْخَ الفُحولِ الصِّيدِ في أَشْوالها

وجاء في اللسان ، مادة كشش : « أبو عبيد : اذا بلغ الذكر من الابل الهدير فأوله الكشيش . واذا ارتفع قليلا قيل : كت يكت كتيتا . فاذا أفصح بالهدير قيل : هدر هديرا . فإذا صفا صوته ورجّع قيل : قرقر » .

ولا نكاد نطمئن الى نسبة هذه الفقرة الى أبى عبيد القاسم بن سلام ، حتى نجد في اللسان نفسه ، مادة زغد : « الاصمعى : اذا أفصح الفحل بالهدير قيل : هدر يهدر هدرا . قال : فإذا جعل يهدر هديرا كأنه يعصره قيل : زغد يزغد زغداً » . وفي مادة قلخ : « الأصمعى : الفحل من الابل إذا هدر فجعل كأنه يقلع الهدير قلعا قيل : قلخ يقلخ قلخا . وأنشد الأصمعى :

قلخ الفحول الصيد في أشوالها »

فلا شك إذن أن كثيرا من المواد الزائدة من رواية الأصمعى . بل ربما كان ما نجده معزوّا الى غيره من اللغويين مرويا عنه أيضا . فالفقرة التى عزاها ابن منظور الى أبى عبيد موجودة في الغريب المصنف (باب أصوات الابل) ، ويبدو عليها أنها مروية عن الأصمعى . ومهما يكن الأمر فلا يُستبعد أن يكون أحد قد أضاف إلى الكتاب عن لغويين غير الأصمعى . .

ونسب القدماء كتباً في الإبل إلى أبى زياد الكلابى (١) (ت ٢١٥)، ونصر ابن يوسف تلميذ الكسائى (٢). ولم يصل إلينا كتاباهما . .

وعقد أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤) كتابا للابل، في موسوعته المسماة «الغريب المصنف»، وهو يشغل من المصورة المحفوظة بمكتبة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ستين صفحة، تضم ٤٥ بابا. ولا نستطيع أن ننسب الى المؤلف ترتيبا معينا في إيراد الأبواب، ولكن اتجاهه العام كان أن يورد حمل الإبل ونتاجها وحلبها وأسنانها، وصفاتها ورعيها وورودها وسيرها وأعدادها وأصواتها وأصوات دعاتها أو زاجريها وأدواتها وأمراضها وعيوبها وسماتها وأبوالها ولحومها وألوانها، وما إليها، بالترتيب الذى ذكرتها به . .

ولكننا نرى موضوعات واحدة - أو متقاربة أو متصلة - موزعة على أكثر من باب دون سبب ظاهر، مثل باب نعوت الإبل في رعيها وربضها، وباب رعى الابل وتركها وعلفها، وباب نعوت الابل في ورودها، وباب ورد الابل، وموضوعات مثلها موزعة لأسباب واهية، مثل أبواب نعوت الابل في ألبانها، وفي قلة ألبانها وفي ضروعها وفي الحلب وفي الرضاع والحلب، وأبواب نعوت الابل في عظمها وطولها وفي أسنمتها والقوية الشداد، وفي سمنها، وأبواب سير الابل في السرعة وفي اللين والرفق وضروب مختلفة من سيرها، وأبواب أمراض الابل وأدوائها، وأمراضها من الشيء تأكله، وأمراض صغارها، وجربها، وغيرها. أضف إلى ذلك أنه كان في بعض الأحيان يباعد بين هذه الابواب المتماثلة أو المتقاربة، ويفصل بينها بما لاصلة له بها. فالباب الاول في رعيها ترتيبه الثالث عشر، على حين أن الثاني هو الثاني والاربعون والاول في الورد هو الرابع عشر، والثاني هو الثاني والأربعون . .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ٢١٥ . ياقوت : معجم الأدباء ١١ : ٢١٦ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ٨٩ . ياقوت : معجم الأدباء ١٩ : ٢٢٥ . السيوطى : البغية ٤٠٤ .

وتتفاوت هذه الأبواب في الطول ، فيشغل أطولها – وهو «باب أسنان الابل» – قريبا من خمس صفحات (١٨١ – ١٨٤) على حين يضم كثير من الصفحات بابين معا..

كذلك تختلف الأبواب في علاجها اختلافا كبيرا ، فبعضها مأخوذ برمته من الأصمعي مثل أبواب أسنان الأبل بعد الكبر ، وورودها وأمراض صغارها ، وألوانها . وبعضها تكاد كل مادة لغوية تؤخذ من لغوى غير المذكور قبلـه ، مثل أبواب نعوت الابل في ألبانها وقلـة ألبانها والرضاع والحالب وغيرها . .

والسمة الواضحة أن أبا عبيد لا يذكر ما يورده من موادّ من عنده ، بـل يختاره من الرواة واللغويين ، وأنه كان يعزو كل مادة يوردها الى راويها . فإذا نظرنا الى هؤلاء الرواة واللغويين وجدنا منهم البصريين كالاصمعي وأبى زيد وأبى عمرو بن العلاء ، والكوفيين كالكسائى والفراء ، وعلى هؤلاء معظـم اعتماده ، وان استقى من غيرهم كالاموى والاحمر وغيرهما . .

ولمـا لم يكن بين أيدينا غير كتاب الأصمعي من الرواة الذين رجع اليهم ، كنا مضطرين إلى الاقتصار على المقارنة بينهما ، عالمين بأنها قاصرة لا تجلو عمله من جميع جوانبه . وتبين هذه المقارنة أنه يقرب أحياناً من عبارة وترتيب النسخة المطولة من كتاب الأصمعي ، وأحياناً من النسخة القصيرة ، وأحيانا كثيرة يخالف عبارتهما وترتيبهما ، بأن يترك مواد ذكراها ويلتقط مع الترتيب ، أو يجمع المتفرق ، أو يترك الترتيب تمـاما ويلتقط كيفما شاء . ولم يلتزم إيـراد عبارة الأصمعي ، وانما أوردها أحياناً ، وأورد الحالة التى وصفها الاصمعى وسماها عن غيره من اللغويين كأبى زيد والكسائى ثم أشار الى أن الأصمعي وافقه . وزاد في بعض الاحيان على الاصمعى مواد ، وصيغا ، وتكملات للتفسير ، ليست في النسختين كلتيهما ولعل بعض الزيادات من عنده ، وبعضها الآخر ساقط من النسختين . ولكن السمة العامة أنه كان يرمى الى الايجاز ، فجعله هذا يجرى بعض التغيير في عبارة الاصمعى ليميل بها الى القصر ، ويحذف الاستطرادات والشواهد النثرية ، وأكثر الشواهد الشعرية ، وكثيرا من الصيغ

والمترادفات . فلم يلتزم في الأفعال إيراد المـــاضى فالمضارع فالمصدر فالصفة ، كما كان الاصمعى يفعل كثيرا ، بل كان يقتصر على المـــاضى والمصدر أحيانا ، ويضيف إليهما الصفة قليلا . .

قال مثلا (١) : « أبو زيد : رَمِثت الابل رَمَثـــًا : اذا أكلت الرمث فاشتكت بطونها . فإن أكلت العَرْفج فاجتمع في بطونها عُجَرحتى تشتكى منه قيل : حَبِجت حَبَجـــًا . الاصمعى : الحَبَج والرَّمَث مثله ، قال : فإن لم يخرج عنها ما في بطونها وانتفخت قيل : حَبِطت حَبَطـــًا . الكســـائى : أَرِكت أَرَكـــًا : إذا اشتكت من أكل الاراك ، وهى إبل أَراكَي ، وأَرِكة مقصـــور » .

ودأب أبو عبيد في داخل أبوابه على أن يورد قولا للغوى ثم لآخر فثـــالث الى أن يفرغ الباب . فاذا اتفق أكثر من واحد ممن روى عنهم صرح بهـــذا الاتفاق ، ولم يكرر الاقوال ، واكتفى بأن يعقب على القول المتفق عليه بأن فلانا مثله . فاذا كان يتفق معه ويزيد عليه ، اشار الى ذلك وقال مثلا (٢) : « الاصمعى . . . فاذا ورم حَياؤها من الضَّبَعة قيل : قد أَبْلَمَت . . . . . أبو عمرو الشيبانى في الإبلام مثله ، قال : ويقال : بها بَلَمة شـــديدة » ، أو قال (٣) : « أبو عمرو في الصَّفِي مثل الاصمعى ، قال : ويقال : صَفُوَتْ وصَفَت » . واذا اختلف اللغويان أعلن هذا الاختلاف ، كما فعل حين ذكـــر أن الأصمعى يقول : أَشْصَّت الناقة : أى ذهب لبنها ، والكسائى يقـــول : شَصَّت (٤) .

وطبيعى أن تتعدد الظواهر في الكتاب ، ولا تتخذ مسلكا واحدا ، أو اتجاهـــًا عامـــًا ، لأن المـــادة منتقاة من لغويين كثيرين يختلف كل منهم عن أخيه في علاجه . ولكن الأمر الواضح الذى أجراه المؤلف هو الاختصار الذى ظهر أثره في قلة الشـــواهد ، وحذف بعض صيغ الأفعال . .

(١) اللوحـــة ٢٠٤ .
(٢) اللوحـــة ١٨١ .
(٣) اللوحـــة ١٨٦ .
(٤) ١٨٦ .

وهذا مثال من باب أصوات الابل(١) : « إذا بلغ الذكر من الهدير فأوله الكشيش وقد كَشّ يكش . قال رؤية :

هدرتُ هَدْرًا ليس بالكشيش

فاذا ارتفع قليلاً قيل : كت يكت . فإذا أفصح بالهدر قيل : هَدَرَ يَهْدِرِ هديرا . فإذا صفا صوته ورجع قيل : قرقر قرقرة . قال الشاعر :

فجاء بها الرواد يحجز بينها سدى بين قرقار الهدير وأعجما

فإذا جعل يهدر هديرا كأنه يُقصّره قيل: زغَد يزغَد زغْدًا . قال الراجز :

بَخٍ وَبَخْباخ الهدير الزغد

فإذا جعل كأنه يقلعه قلعا قيل: قلخ يقلخ قلخا ، وهو بعير قلاّخ . قال الراجز :

« قلخ الفحول الصيد في أشوالها » .

وذكر القدماء أن أبا نصر أحمد بن حاتم (٢) (ت ٢٣١) ألّف كتابا عن الابل ، ولكنا لا نعرف عنه شيئا . كما ليس لدينا معلومات عن كتاب الإبل لأبي يوسف يعقوب بن السكيت(٣) (ت ٢٤٦) . .

ولكن ابن السكيت جعل للابل بابين في كتابه « الألفاظ » : أولها : باب الجماعة من الابل ، والثاني : باب سير الابل . ورتب الباب الأول (ص ٣٥ — ٤٠) تصاعديا على وجه التقريب . وعني فيه أكثر ما عني بالاختلافات بين اللغويين في تفسير اللفظ الواحد . فبدأه مثلاً بقوله (٤) : « قال الأصمعي : الذود من الابل : من ثلاث إلى عشر . وَمَثَلٌ من الأمثال : « الذود إلى الذود ابل. » قال أبو عبيدة : الذود ما بين الثِّنْتَين وبين التسع من الإناث دون الذكور ، كقول الراجز :

---

(١) ١٩٦ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ٨٣ . ياقوت : معجم الأدباء ٢ : ٢٨٤ . القفطي : انباه الرواة ١ : ٣٦ . السيوطي : البغية ١٣٠ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ١٠٨ . ياقوت : معجم الأدباء ٢٠ : ٥٢ .

(٤) ٣٥ .

ذَوْدٌ ثلاثٌ بَكْـرةٌ ونابـانْ غيرَ الفحولِ من ذكورِ البُعْرانْ

قال القاسم : الاصمعى : الذود : ما بين الثلاث الى العشر ، ولا يقال الذود إلا للنوق . وقال أبو زيد : يقال للذكورة والإناث » .

وسار على هذا النمط : يقدم اللفظ ويعقبه بمـا في تفسيره من خـلاف . ولكنه عدل بعد مدة ، ففسر عدة ألفاظ ، ثم عاد اليها وأورد ما فيها من خلاف ، وأنهى الباب بصفات تطلق على جماعات الابل ، ولم ينبه فيها على خـلاف . قال(٢) : « قال : يقال : أعطاه مائة جُرْجورا : وهن العِظام الأجرام . قال الأعشى :

يَهَبُ الجِلَّةَ الجَراجِرَ كالبُسْتانِ تَحْنُو لدَرْدَقٍ أطفالِ

قال : ويقال للابل اذا لم تكن فيها أنثى وكانت ذكورة : هذه جُمالةُ بنى فلان . ويقال : مائة مَعْكاء : أى ممتلئة سمينة . ويقال نَعَم عَكَنان : أى كثير . وقال الفراء : عَكْنان ، بالتخفيف » .

واستشهد الباب بأمثال وأشعار ، نسب بعضها وأهمل بعضها ، وأورد بيتين في الشاهد الواحد أحيانا ، وشاهدين على اللفظ الواحد أحيانا . واستطرد في مواضع ، فأشار الى المعانى غير المتصلة بالابل ، والى المعانى المجازية . وأكثر الباب مأخوذ من الأصمعى وأبى عبيدة وأفار بن لقيط ، ورجع المؤلف في بعضه الى أبى زيد الانصارى وأبى عمرو بن العلاء وأبى عمرو بن الشيبانى والفراء وغيرهم . .

أما الباب الثانى (ص ٤١٤ — ٤١٩) فمأخوذ كله — عدا ألفاظا قليلـة في آخـره تتعلق بالخيل والابل — من كتاب الإبل للاصمعى (ص ١٢٣، ١٤٧). والتزم نص الاصمعى وترتيبه على وجه التقريب ، مع ميل إلى الاختصار ، جعله يحذف بعض الشواهد ، ويقتصر على واحد منها عند تعددها ويحذف بعض المواد والصيغ . ويختصر بعض التفسيرات . قال مثلا في الفقرة التى استشهدنا بها عند الاصمعى(٢) : « العَنَق : الفسيح :

---

(١) ٣٩ . (٢) ٤١٤ .

(ومن) سَيْرها العَنَق المسبطرْ رُ والعجرفيـّة بعد الكلال

فاذا ارتفع عن العنق شيئا قيل : هو يمشى التزيُّد : قال الاعشى :

وأتلع نهاض اذا ما تزيدت به مدّ أثناءَ الجديل المضفّر

فإذا ارتفع عن ذلك فهو : الذميل . فاذا قارب الخطو وداركَ النِّقَال فهو : الرَّتْك . يقال : رَتَك يرتك رتكا ورتكانا » .

وصرح المؤلفون القدماء بأن أبا عكرمة الضبى(١) (ت ٢٥٠) ألف كتاب الإبل والغنم ، وأن الجاحظ (٢) (ت ٢٥٥) ، وأبا حاتم سهل بن محمد السجستانى(٣) (ت ٢٥٥) ، وأبا الفضل العباس بن الفرج الرياشي(٤) (ت ٢٥٧) ، وابن قتيبة عبد الله بن مسلم (٥) (ت ٢٦٧) ، وأبا السمح الطائى(٦) الذى شاهد عهد الخليفة المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥) خمستهم ألفوا كتبا بعنوان « كتاب الابل » . وصرح ابن النديم أن كتاب ابن قتيبة كان في ستة عشر بابا ، وأن كتاب أبى السمح كان بخط صعوداء محمد بن هبيرة .

وكتاب « النـَّعَم والبهائم والوحش والسباع والطير والهوام وحشرات الارض » الذى حققه الاب موريس بويج Lep. Maurice Bouyges

ونُسب إلى ابن قتيبة ، يشتمل على عدة أبواب في الابل ، تشغل منه قريبا من ٧٣ صفحة . ويتضح منذ النظرة الاولى الى عناوين أبوابه أنها عناوين أبواب كتاب الغريب المصنف لأبى عبيد نفسها ، وأنها تجرى على ترتيبها أيضا . وعند متابعة ما في داخل الأبواب نجد أنه ما جاء في أبواب الغريب المصنف . ويبدو أن مؤلف « النعم » عندما أراد تدوينه وضع أمامه كتاب الابل من الغريب المصنف ، وأخذ في تصفحه . وكلما وقعت عيناه على اسم راوٍ أو لغوى ممن

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١٢ : ٣٩ .
(٢) ياقوت : معجم الأدباء ١٦ : ١٠٦ .
(٣) ابن النديم : الفهرست ٨٧ .
(٤) ابن النديم : الفهرست ٨٦ . ياقوت : معجم الأدباء ١٢ : ٤٦ . السيوطى : البغية ٢٧٦ .
(٥) ابن النديم : الفهرست ١١٥ .
(٦) ابن النديم : الفهرست ٦٧ .

يزدحم بهم الغريب ضرب عليه بقلمه . فلم يورد غير أبي عبيد ثلاث مرات(١) والفرّاء مـــرة (٢) والأصمعى أخرى(٣) ، وأبا الجرّاح ثالثة(٤) . وكلما عثر على شاهد حـــذفه ، أو حذف شطره الذى ليس فيه موضع الشاهد ، أو اقتصر على لفظـــة الشـــاهد وحدها . وحذف أيضا التنبيهات على موافقات اللغـــويين ومخالفاتهم ، وقليلاً على المواد والصيغ والمترادفات . وأجرى تغييرًا طفيفا جدا يكاد لا يُلمس في إيراد بعض العبارات ، أرغمه على أكثره حذفُه لأسماء اللغويين . وكل ما زاده : مرادف ، وصيغة تذكير ، ومعنى استطرادى للفظ ، وتعليق من كلمتين على أحد الشواهد ، ولفظ غير متصل بالابل يبدو أنه جاء تعليقا على شاهد كان في الغريب المصنف وحذفه هو ، وإن كان التعليق غـــير موجود في نسخة الغريب التى بين يدى ، وأضاف في آخر الابواب ثلاثة أسطر ، صرح أنها مأخوذة من حيوان الجاحظ(٥) . وقد التقطها فعلا من مواضع متفرقة من ذلك الكتاب . كذلك أورد عبارة نسبها الى أبى عبيد وليست في الغـــريب ، قال : « قال أبو عبيد : عَوْدٌ وعَوْدان وعَوْدة » .

وهذا مثال من الكتاب ، قال : « إذا بلـــغ الذكر من الابل الهـــدير فأوله الكَشيش ، وقد كَشَّ . فإذا ارتفع قليلا قيل : كَتَّ يكت كتيتا . فاذا أفصح بالهـــدر قيل هَدَرَ يهـــدر هديرا . فإذا صفا صوته ورجَّـــعَ قيل : قَرْقَـــر قرقرة . فإذا هـــدر هديرا كأنه يعصره قيل : زَغَدَ يزغد زغـــدًا » . .

وفي القرن الرابع ألف أبو الحسن على بن الحسن الهُنائي المعروف بكُراع النمل (الذى كان يعيش ٣٠٧ هـ) كتاب « المنتخب والمجرد » ، وتوجد قطعة مخطوطة منه بدار الكتب بالقاهرة ، محفوظة برقم ٨٥٨ لغة . وتحتوى على باب

---

(١) ٢٦ ، ٤٨ ، ٨٠ .
(٢) ٣٢ .
(٣) ٧٠ .
(٤) ٧٠ .
(٥) ٨٩ .

خاص بسمات الإبل وغيرها ، يشغل حوالى ثلثى صفحة من القطع الكبير (الورقة ٤٨) .

ويقوم منهج المؤلف في الباب على تقديم اللفظ اللغوى ثم إيراد تفسيره . ويعتمد التفسير على إبانة موضع السمة أو شكلها أو الاثنين معا . وأشار مرة إلى كل من اشتقاق اللفظ ، وجمعه ، والفعل منه ، والجماعة التى تتخذ هذه السمة . ولم يورد من الشواهد غير بيت من الشعر لم ينسبه إلى قائله . .

ونمثل لهذا المنهج بقوله : « اللِّحاظ : سمة في مؤخر عين البعير ، مشتق من لَحْظ العين ، وهو النظر بمؤخرها . والقُرْعة : سمة خفيفة على وسط أنف البعير والشاة . والعِلاط : سمة في العنق بالعرض . والعِلاب : سمة في طول العنق تكون شبرا أو أقل . والفِرْتاج : سمة أيضا . . . والصَّيْعَرية : سمة لاهل اليمن في أعناق الإناث خاصة . ومنها الرَعْلة : وهو أن يشق من الأذنين ثم يترك معلقا » .

وفي هذا القرن أيضا ألف أبو على اسماعيل بن القاسم القالى(١) (ت ٣٥٦) كتاب الإبل ، وكان في خمسة أجزاء (٢) ، ولكنه لم يقع للباحثين بعد ، ولا نعرف عنه شيئا آخر . .

وفي القرن الخامس ألف محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافى (ت ٤٢١) كتاب « مبادىء اللغة » . وأفرد للإبل فيه بابا يشغل قريبا من صفحة (١٤٣ — ١٤٤) ، على نقيض اهتمامه بالخيل . وبدأ هذا الباب وختمه بألفاظ عامة تطلق على الإبل أو الذكور أو الإناث خاصة ، ثم ذكر أسماءها في مراحل العمر المختلفة

---

(١) الزبيدى : طبقات النحويين ١٧٩ . ابن خير : فهرسة ٣٥٥ . ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٢٩ . السيوطى : البغية ١٩٨ .

(٢) ابن خير : فهرسة ٣٥٥ .

قال (١) : « الابل : جمع لا واحد لها من لفظها ، والذكر منها : جَمَل والأنثى ناقــة . والبعير : يقع عليهما . قال :

لا نشتهى لــبن البعــير وعندنا عرقُ الزجاجة واكِفَ المِعْصار

وقد نُتِجت الناقة . والقائم عليها : ناتج ، وهو المُذَمِّر . والولد حين يُسَل من أمــه : سليل ، ثم حُوار ، إلى سنة . وجمعه أحْورة وحيران . وفَصيل إذا فُصل عن أمــه . وهو في السنة الثانية : ابن مَخاض » .

ونثر أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبى (ت ٤٢٩) عدة فصول عن الإبل في الأبواب المختلفة من كتابه « فقــه اللغة » . وعالج في هذه الفصول – التى تبلغ ١٧ فصلا –: سمن الإبل وهزالها ، وألوانها ، وسماتها ، وسماتها في أعمارها المختلفة ، وأوصاف فحولها ، وما يركب منها ، وأوصاف النوق عامة وعند نتاجها وحلبها ومع أولادها ، وضروب سيرها . وورودها المــاء ، وأصواتها وجماعاتها ، وما يجعل في أنوفها . ولم يعقد الفصل أحيانا على أساس سـليم . فجعل لســير الابل ثلاثة فصول متوالية : الأول في تفصيل ضروب سيرها (٢) ، والثانى في ترتيب سيرها عن النضر بن شميل (٣) والأخير في مثل ذلك عن الأصمعى (٤) . ولا يوجد كبير خلاف بين الفصول الثلاثة والأخيرين خاصة.

وصرح المؤلف في بعض الفصول أنها مأخوذة كلها عن أبى عبيد في الغريب المصنف ، الذى كان قد أخذها عن أبى زيد والأصمعى (٥) ، أو مأخوذة عن ثعلب عن ابن الأعرابى (٦) ، أو عن الأصمعى وغيره (٧) ، أو عن الأئمة

---

(١) ١٤٣ .
(٢) ٢٩١ . (طبع مصطفى محمد ١٩٣٨) .
(٣) ٢٩٣ .
(٤) ٢٩٣ .
(٥) ٩٨ .
(٦) ٩٩ .
(٧) ٢٩٤ .

الأئمـــة دون تحديد (١) . وكذا صرح في داخل بعض الأبواب بأن بعض الصيغ مأخوذ عن الكسائى(٢) ، أو أبى زيد (٣) ، أو الأصمعى(٤) ، أو أبى عمرو(٥) أو الفـــرّاء (٦) . والواضح أن جُلّ اعتماده على الغريب المصنف لأبى عبيد ، وإن كان قد تصرف في عبارته .

ويتمثل منهجه في إيراد الحالة التى يتكلم عنها أولا ، ثم يطلق عليها اللفظ أو الألفاظ التى تنطبق عليها ، وقد يورد اللفظ أولا ثم يفسره . وفي بابى ترتيب هزال البعير (٧) وترتيب سير الابل عن النضر (٨) ، اكتفى بإيراد الالفاظ ، وترك تفسيرها لدلالة الترتيب عليه . ولم يعن بالتنبيه على الفعل أو الصفة أو المفرد والجمع أو المذكر والمؤنث من اللفظ الذى يأتى به . ولم يأبه للشواهد ، ما عـــدا حديثا شريفا (٩)وخبرين نثريين (١٠) ذكرهما فيما يبدو متلطفا . وأشار مرة إلى أن اللفظ وارد في شعر الأعشى (١١) ، كما أومأ مرة إلى اشتقاق لفـــظ(١٢) وأورد مرتين معنى استطراديا لأحد الألفاظ(١٣) . وبيّـــن أن المؤلف كان يرمى إلى الإيجاز في أبوابه ومادته اللغوية وعلاجه لها . .

---

(١) ١٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٩١ .
(٢) ٢٥٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٣١٦ ، ٣٣١ .
(٣) ٢٥٠ ، ٢٩٢ .
(٤) ١٤٨ ، ٢٩١ .
(٥) ١٤٨ ، ٢٩٢ .
(٦) ٢٩٢ .
(٧) ٩٩ .
(٨) ٢٩٣ .
(٩) ٢٤٧ .
(١٠) ٢٤٧ ، ٢٩١ .
(١١) ٢٥١ .
(١٢) ٢٤٩ .
(١٣) ٢٥٠ ، ٢٩٤ .

وهذا مثال لمنهجه ، قال(١) : « إذا أخرجت الناقة صوتاً من حلقها ولم تفتح به فاها ، قيل : أَرْزَمتْ (وذلك على ولدها حتى ترأمه) . والحنين : أشد من الرَّزَمة ، فإذا قطعت صوتها ولم تمدّه قيل : بَغَمت وتزغَّمَت . . . . فإذا بلغ الذكر من الابل الهدير قيل : كش ، فاذا زاد عليه قيل : كَشْكَش وقَشْقَش . فإذا ارتفع قليلا قيل : كَتَّ وقَبْقَب . فإذا أفصح بالهدير قيل : هَدَر . فإذا صفا صوته قيل : قَرْقَر . فإذا جعل يهدر كأنه يَقْصُره : زَغَد . فإذا جعل كأنه يقلعه قيل : قلَخ » .

وعقد ابن سيده (ت ٤٥٨) كتابا للابل في موسوعته الكبيرة « المخصص » يكاد يشغل السفر السابع كله (٢ — ١٧٥) . وجمع فيه المؤلف كل ما يتصل بالإبل ، فوقع في ٨٨ فصلا ، نستطيع أن نقول : إن الترتيب العام لها على النحو التالي : الفصول المتعلقة بنتاج الإبل وأولادها وارضاعها وأعمارها ، فالفصول الخاصة بأعضائها فالخاصة بضخامتها وهزالها ، فأصواتها ، فطعامها وشرابها ، فأنواع سيرها ، فجماعاتها ، فأدواتها ، فسماتها ، فعيوبها وأمراضها وعلاجها . وهناك فصول أخرى مفردة أو صغيرة بين ماذكرت ، وفصول متصلة الموضوع وفرّق بينها المؤلف ، ولذلك لا أستطيع أن أنسب الى ابن سيده ترتيبا ملتزما وإنما اتجاهاً عاما نحو الترتيب .

وبدأ الكتاب بتعريف لفظ الابل ، وتجلية نواحيه اللغوية جميعا . قال(٢) : « الإبل : اسم واحد يقع على الجميع ، ليس بجمع ولا اسم جمع ، إنما هو دالّ عليه . والابل مخفف عنه . وجمعهما آبال ، كُسِّر إذ كانوا قد يكسرون الجمع واسم الجمع ، فهذا أولى لانه واحد وإن دلّ على جميع ، كما قالوا : أراهط . قال سيبويه : وقالوا : إبلان ، لانه اسم لم يُكسَّر عليه . وانما يريدون قَطيعَيْن على : إنما ذهب سيبويه إلى الإيناس بتثنية الأسماء الدالة على الجمع ، فهو يوجهه إلى ألفاظ الآحاد ، ولذلك قال : وإنما يريدون قَطيعَيْن » .

---

(١) ٣١٦ .

(٢) ٢ .

وكذلك مال في الفصول إلى أن يبدأها بإبانة مفهوم اللفظ العام الذى تقوم عليه ، أو يدور الفصل حوله . ثم يورد ألفاظ الفصل . قال في صدر باب حمل الإبل ونتاجها (١) : « النتاج : اسم يجمع وضع جميع البهائم ، وقيل : هو في الناقة والفرس ، وهو فيما سوى ذلك نَتج . والأول أصح . وقيل : النتاج في جميع الدواب ، والولاد : في الغنم : وقد نَتَجْتها نَتْجا ونتاجاً ، وأَنْتَجْتها . ونتَجَتْ . فأما أحمد بن يحيى فجعله من باب مالا يُتكلم به الا على الصيغة الموضوعة للمفعول . أُنْتِجَت ونُتِجَتْ وأَنْتَتَجَت الناقةُ : وضعت من غير أن يَليها أحد » .

والتزم المؤلف ترتيب أبى عبيد لأبواب غريبه المصنف في بعضها (انظر الضبعة والضراب ، وحمل الإبل ونتاجها ، وصفات الإبل في النتاج مثلا (٢) ، وأهمله في بعضها الآخر (انظر أسماء ما في الإبل من خلقها وغيره(٣)) .

وأدخل أبواب الغريب المصنف كلها في كتابه ، والتزم مادتها اللغويةالأساسية ولكنه حذف أكثر أسماء اللغويين الذين ذكرهم أبو عبيد وعزا مادته اليهم ، واكتفى ابن سيده بأن نسب المادة الى أبى عبيد نفسه . .

وكان همّ المؤلف الاول أن يجلو اللفظ الذى يورده من جميع جوانبه . فكان يقدمه ويورد أقوال كثير من اللغويين الذى تعرضوا له ، مبيِّنين معناه أو صيغه أو مصادره أو الصفات منه أو الأسماء ، والمفردات والجموع والمرادفات والاشتقاق ، وأحياناً التوضيح أو التعليل النحوى أو الصرفى . فكان اللفظ يخرج إلى كتابه مكتمل النواحى متضح الجوانب . يقول(٤) : « أبو عبيد : العَنَق من السير : المسبطرّ . قال أبو على : يعني الممتدّ . ابن دريد : وهو العَنيق ، وقد أعْنَق . غيره : سير عَنَق ، وناقة مُعنِق ومِعْناق وعنيق ، أبوعبيد : السَّبْت

(١) ٨ .
(٢) ٢ ، ٨ ، ١٧ .
(٣) ٤٧ .
(٤) ١١٤ .

العَنَق ، وقد تقدم أنه السير السريع . غيره : عَنَق خِطْرِيف : واسع ، من قولهم : خَطْرَف في مشيه وتخَطْرف ، وأنشد :

إذا تلقتْه الجراثيمُ طَفا وان تلقَّى غَدَرا تَخَطْرفا

وكان جل اعتماده في النواحي اللغوية على أبى عبيد وابن السكيت وأبى زيد وابن دريد وصاحب العين (لم يُسَمِّه احترازا) والأصمعى وأبى حاتم وفي النواحي الصرفية والنحوية على سيبويه ، والرمانى والسيرافى والفارسى . ولكنه لم يقتصر عليهم ، بل أخذ عن كثيرين غيرهم مثل أبى عبيدة ، واللحيانى وأبى الخطاب الاخفش وأبى على القالى ، وابن الاعرابى وأبى عمرو وأبى حنيفة الدينورى وثعلب وابن جنى وقطرب وغيرهم . وواضح أن المؤلف جمع ما ألفه معظم اللغويين في الإبل ، وأشهر المعاجم في أيامه ، واستقى مادته من النوعين من الكتب جميعا ، ولم يفعل ذلك أحد قبله . ولكنه لم يستغرق جميع ما أوردته هذه الكتب ، بل مال الى الاختصار ، وخاصةً في الشواهد فحذف أكثرها .

قال (١) : « إذا بلغ الذكر من الابل الهدير ، فأوله الكَشيش ، وقد كَشّ يكشّ كشيشا ، وأنشد :

هدرت هدرًا ليس بالكشيش

ابن دريد : وكذلك الكشكشة . السكرى : وربما سُمِّى رُغاء الفصيل إذا كان ضعيفا : عُواء . أبو عبيد : فإذا ارتفع قليلا قيل : كتّ يكت كتيتا . فإذا أفصح بالهدير قيل : هدر يهدر هدرا وهديرا . سيبويه . وهو التَّهْدار ، وانه لهَدّار . أبو حاتم : رجَّع البعير في شِقْشِقَته : هدر . أبو عبيد : فإذا صفا صوته ورجَّع قيل : قَرْقَر والاسم القَرْقار . وأنشد :

وجاء بها الرُّوّادُ يحجز بينها سُدًى بين قرقار الهدير وأعجما

(١) ٧٧ .

ابن دريد : ثم كثُر ذلك حتى قيل للحسن الصوت : قرقار . فإذا جعل يهدر هديرا كأنه يعصره قيل : زغد يزغد زغدا ، وأنشد :

بَخٍ وبَخْباخ الهدير الزَّغد

أبو عبيدة : هو الكثير الذى لا يكاد ينقطع . صاحب العين : هو الشديد ، وقيل : هو الذى يتردد في الشقشقة . أبو عبيد : فإذا جعله كأنه يقلعه قلعا قيل : قَلَخ يقْلخ قَلْخا وقَلِيخا ، وهو قلاّخ . صاحب العين : وقُلاَخ » .

وتناول الخطيب التبريزى يحيى بن على (٤٢١ — ٥٠٢) كتاب الألفاظ لابن السكيت ونقّحه وسماه « تهذيب الالفاظ » . وأبقى الخطيب على بابى الإبل اللذين كانا في الالفاظ ، ولم يزد عليهما أبوابا أخرى في تهذيبه ، ولم يجر أى تغيير في داخل البابين ، وإنما أضاف الى مادتهما بعض الشواهد . فاتى بشواهد على ألفاظ لم يكن ابن السكيت قد استشهد عليها ، وأضاف شواهد على ألفاظ كان مستشهدا عليه ، وشواهد على معان استطرادية تطرق هو إليها . .

وفي القرن السادس ألف ابن الأجدابى الطرابلسى — إبراهيم بن اسماعيل (ت. قبل ٦٠٠ هـ) « كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ في اللغة العربية » ، وهو كتاب صغير كل الصغر . وأورد فيه ثلاثة أبواب عن الإبل ، تشغل منه نحو سبع صفحات (١٧ — ٢٣) . وسمى الباب الأول « الإبل » . وجعل فيه ثلاثة فصول متميزة إلى جانب صدره . وعالج في صدره أسماء الإبل في أعمارها المختلفة ، وفي الفصل الأول أسماء الابل العامة ، وما يطلق منها على الذكور والاناث والصغار والكبار كلا على حدة ، وفي الفصل الثانى بعض صفات الابل ، الضامرة والشديدة والغليظة والخفيفة والكريمة وغيرها ، وفي الثالث جماعاتها . وجعل الباب الثاني لألوان الابل والثالث لسَيْرها . وميَّز في الباب الأخير قسما خاصا جعل عنوانه « من ضروب السير » ، ولا فرق بينه وبين بقية الباب . .

وبَيِّنٌ في الابواب الايجاز الشديد الذى يلتزمه مؤلفه ، حتى انه يقتصر على قليل من الالفاظ ، ويأتى باللفظ ثم يورد تفسيره مجملا كل الاجمال ، فلا يتضح

الفرق بينه وبين نظرائه من الألفاظ ذوات المعانى المتقاربة . بل أورد في القسم الأخير من الباب الثالث مجموعة من الالفاظ دون أن يفسرها ، واكتفى بأن قال بعد أن فرغ منها (١) : « كل هذه أنواع من السير سريعة » . ولم يهـتم كثيرا بإيراد الصيـغ المختلفة من اللفظ الذى يورده . واختفت عنده الشواهد ، غير أنه ختم باب ألوان الابل بثلاثة أقوال سائرة عن بعض هذه الالوان .

قال (٢) : « الذود من الابل : ما بين الثلاث الى العشر . والصِّرْمة : فوق ذلك إلى الأربعين . والهَجْمة : فوق ذلك إلى ما زادت . والعَكَرْة من الابل : ما بين الخمسين إلى السبعين . وهُنَيدة : المـائة من الابل . . .

وفي العصر الحديث أخرج الأستاذان : عبد الفتاح الصعيدى وحسين يوسف موسى كتابهما « الافصاح في فقه اللغة » عام ١٩٢٩ م . وجعلا الباب الثانى عشر منه للحيوان والوحوش والطيور والحشرات ، فخصصا اثنى عشر فصلا منـه للابل ، وسبعة لسيرها (٣٤٥ — ٣٦٥) . وقدما فصول ضراب الإبل . وحملها ونتاجها وعطفها على أولادها ونعوتها في أخلاقها وحلبها ولبنها ، ثم نعوتهـا في قوتها وضعفها وألوانها وأوبارها ، ثم طعامها وشرابها ثم أصواتها وإفرازاتها . ورتب فصول سيرها على السير اللين ، وسوقها وحدائها وسيرها العنيف ، ثم خطمها ثم عيوبها وأمراضها ، وأدوات ركوبها . .

وكان هدفهما في الكتاب تهذيب مخصص ابن سيده وتلخيصه . والصـلة بيِّنة بين فصول الكتابين ، غير أن مؤلفى الافصاح أجريا بعض التغيير على ترتيب الفصول ومحتوياتها فوضعا مواد مفرقة على أكثر من فصل في المخصص في فصل واحد من كتابهما ، والتقطا المواد اللغوية ووضعاها في الفصول دون مراعاة لترتيبها في المخصص . وعمدا الى التقاط ما اختاره من مواد وأهمـلا

---

(١) ٢٣ .

(٢) ٢٠ .

غيره . وقد صرحا في مقدمتهما (١) بأنهما تاركان ما لا تدعو اليه الحاجة في الاستعمال الذائع ، ومثبتان من الروايات أتمها مادة وأظهرها معنى وأوفاها اشتقاقا . كذلك تركا الشواهد والروايات والأقوال النحوية والصرفية . فخرج كتابهما في مجلد واحد صغير . .

وحافظا على عبارة ابن سيده فلم يدخلا عليها الا قليلا جدا من التغيير وأضافا بعض التنبيهات على المذكر والمؤنث من الالفاظ ، وعلى أبواب الافعال التى يوردانها . ووجدت قليلا جدا من الألفاظ التى لم أعثر عليها في الفصول المقابلة من المخصص . وبعضها أخذاه من فصول أخرى من المخصص نفسه ، وبعضها الآخر أخذاه من غيره من الكتب اللغوية التى أفادا منها ، وأشارا إليها في مقدمتهما كالقاموس المحيط للفيروز أبادى وغيره (٢) .

وحاولا أن يسهلا على القارىء الوصول إلى طلبته من الألفاظ فقدّما كل لفظ يراد تفسيره الى أول سطر جديد ، ووضعا الى جانبه نجمة لتلفت النظر اليه ، وقسّما الصفحة الى نهرين . وهذا مثال من فصل الاصوات (٣) .

« * البُغام — صوت ذى الخف إذا بدأ وقد بغمت النـاقة تبغم .

* الرُّغاء — رغا البعير يرغُو رغاء : صوّت فضجّ ، وناقة رَغُوّ : كثير ةالرغاء وأَرْغيتُها : حَمَلْتُها عليه .

* الحَنين — حنّت الناقة : طرّبت في أثَر ولدها ، حنت تَحِنّ حنينا .

(١) ت .
(٢) ث .
(٣) ٣٥٥ .

* الكَتيت — الهدير اذا ارتفع قليلا فوق الكشيش . كتّ يكت كتيتا .

* الهدير — هدر البعير يهدر هدرا وهديرا ، وهدّر صوّت في غير شِقْشقة

* القَرْقرة — هدير البعير إذا صفا صوته ورجّع ، وقد قرقر .

* الكَشيش — أول هَدير الجمل اذا بلغ الهدير ، وقد كَشّ يكشّ كشيشا .

* الجَرْجرة — تردّد هدير الفحل في حنجرته ، وقد جَرْجَر ، وفحل جُراجِر : كثير الجرجرة » .

وصفوة القول أن الاشارات التى عثرنا عليها والكتب التى وصلت الينا تبين أن العرب تنبهوا إلى معالجة الإبل منذ زمن مبكر ، ، فألفوا أول ما ألفوا عنها في النصف الثانى من القرن الثانى أو الأعوام الأولى من القرن الثالث . ثم توالت الكتابة عن الابل . فقد توصلنا الى عناوين خمسة عشر كتاباً خاصة بالابل ، وأحد عشر كتابا آخر أفردت لها فصلا أو أكثر .

وكان اللغويون في العصور الأولى أعظم ولعـًا بهذا الموضوع ، حتى دوّن اللغويون الذين توفوا في القرن الثالث وحده أربعة عشر كتاباً مفردا للابل . أضاف اليها القرن الرابع كتابا واحدا . ثم لم نعد نسمع عن لغويين ألفوا في الابل خاصة . أما الكتب العامة التى تعرضت للإبل بين الموضوعات التى تعرضت لها ، فألف أربعةٌ منها لغويون ماتوا في القرن الثالث ، وواحداً لغوى من أهل القرن الرابع وثلاثةٌ لغويون توفوا في القرن الخامس واثنين ماتا في القرن السادس وآخرها ظهر في قرننا هذا . .

ولم يصل إلينا من الكتب الخاصة بالإبل غير كتاب الأصمعى ، الذى كان بعيد الأثر في بقية الكتب اللغوية التى تعرضت لهذا الموضوع بعده . أما الكتب العامة فلا نعرف شيئا عن أولها ، لانه لم يصل إلينا . كذلك لم نعثر من كتاب المنتخب والمجرد لكراع النمل الا على قطعة ، وربما كان في الأجزاء المفقودة منه ما يضيف إلى معلوماتنا عنه أو يغيرها بصدد موضوعنا . ولما كانت هذه القطعة الموجودة لا تضم عن الابل غير فصل واحد قصير ، وكان كتاب مبادىء اللغة للإسكافي يضم فصلاً واحدا أيضا عن الإبل وكتاب الألفاظ (وتهذيبه) يضم بابين ، وكتاب كفاية المتحفظ يضم ثلاثة فصول قصيرة وكتاب النعم . . . المنسوب لابن قتيبة صورة مشوهة لأبواب الغريب المصنف لأبى عبيد ، كانت هذه الكتب جميعا غير ذات قيمة في هذا الصدد . .

ويبقى لدينا أربعة كتب فقط ، انتهج فقه اللغة للثعالبى منها منهجا خاصا ، إذ لم يعقد كتاباً مفردا للابل ، بل فرق ما يتعلق بها في فصوله المختلفة . وبالرغم من ذلك ، نجد الكتب الاربعة تعالج جوانب مشتركة من الابل ، هى ضراب الابل وحملها ونتاجها ولبنها وأولادها وأعمارها وطعامها وشرابها وصفاتها وألوانها وسيرها وأدواؤها ،وكل هذه الامور نجدها في كتاب الأصمعى أيضا . وإذن فقد صار هذا الكتاب القدوة التى يُحتذى من بعده في المادة وفي النواحى التى يجب تناولها . ليس ذلك حسب ، بل نجد كل الكتب التى تعرضت للإبل تبدأ ككتاب الاصمعى بضراب الابل وحملها ونتاجها ، فقد احتذته في الترتيب أيضا ، وان اختلفت معه في ترتيب بقية الفصول . يضاف إلى ذلك أنها احتذته في ترتيب المواد اللغوية في داخل الفصول ، فرتبت بعضها زمنيا أى وفق المراحل التى تمر بها الإبل في هذا المجال ، ولم تلجأ في بعضها الآخر الى ترتيب ما . فالأصمعى هو الذى مهّد الطريق ، وأبان معالمها ، ورسم حدودها التى لم يتعدّها أو يغيرها مؤلف بعده .

ولا يعنى ذلك أن الكتب كلها متماثلة ، لا نستطيع أن نميز بينها . فقد كان الأصمعى يحتفل احتفالاً كبيرا بالشواهد المتنوعة بين شعر وأمثال وأقوال وأخبار ،.

فاضطر أبو عبيد وابن سيده بعده إلى حذف الكثير منها . وكان أبو عبيد يلتزم أن يعزو كل قول إلى راويه ، وأن يصرح بالمواطن التى اتفق فيها اللغويون أو اختلفوا . فاضطر ابن سيده بعده إلى حذفها . وكان الثعالبى أكثر من غيره قصداً إلى الإيجاز ، والاكتفاء باللفظ وتفسيره حسب ، دون أن يأبه لأمر آخر . أما مخصص ابن سيده فأكبر هذه الكتب ،وأوسعها مادة لغوية ، وأكملها تنــاولاً للفظ الذى يعالجه وتجلية ً لجوانبه المختلفة ، وأحفلها بالآراء والتوجيهات النحوية والصرفية ، وأكثرها مراجع متنوعة بين رسائل لغوية صغيرة ، ومعاجم كبيرة ، ومصنفات نحوية . ولا يبارى « الافصاح » للمؤلفين المعاصرين الكتب السالفة في المادة اللغوية ، فهى فيه قليلة جــدا ، ومجــردة عن الشواهد والتعليلات ، ولكنه أجمل منها طبعــا ، وأكثر إفادة ً بالنواحى المحدثة التى تيسر على القارىء الوصول إلى ما يريد ، وأعظــم محاولة — إلى حد ما — في تجلية التفسير الذى ّ يأتى به للمــادة التى يعالجها .

كُتبُ الغَنم

شاركت الغنم بقية الحيوان فيما لقيته من عناية اللغويين ، ولكنها كانت أقل حظا من كثير من الأنواع الأخرى منه . وأول من ينسب إليه تأليف فيها النضر بن شميل (٢٠٤ هـ) الذى جعل الجزء الرابع من كتابه الصفات لها وللطير والشمس والقمر والليل والنهار والألبان والكمأة والآبار والحياض والأرشية والدلاء والخمر .

ثم ألف الأصمعى (٢١٣ هـ) كتابه «الشاء» الذى نشره هفنر ١٨٩٦ م في فينا . ولم يجعل الأصمعى لكتابه أقساما معينة ، ولكنه سار فيه على هدى كتابه خلق الإنسان ، أو بعبارة أدق في الأبواب الأولى منه . فقد بدأه بأحوال حمل الشاة ، فولادتها ، فأحوالها المختلفة مع أبنائها ، وأسمائها التى تطلق عليها في المراحل المختلفة قبل الولادة وبعدها ، وأسماء أولادها في أعمارهم المختلفة ، ويستمر في نهج زمنى إلى أرذل عمرها ، فينتهى الكتاب .

واستطرد في أثناء هذا التتبع الزمنى إلى وصف وتسمية بعض أعضائها ، وعيوب ضروعها ، وعيوبها عامة ، وأدوائها . وأورد في تضاعيف كلامه بعض المحاورات التى جرى فيها وصف الشاء ، ثم فسر ما فيها من ألفاظ غريبة تتعلق بها . والتفت في علاجه إلى جموع المفرد ، وإلى الأفعال التى تطلق على كل حالة تمر بها الشاء ، وأتى ببعض الشواهد الشعرية التى نسب بعضها وأهمل الآخر ، وعلّق على كثير منها . وذكر الألفاظ التى تطلق على بعض الحيوان غير الغنم . وتقابل الألفاظ المطلقة على الغنم (الفرق) .

وصفوة القول في هذا الكتاب أنّ همه الأول تتبع أسماء وأوصاف الشاء في مراحل حياتها المختلفة تتبعا زمنيا ، أما وصف أعضائها ونعوتها ، وما إلى ذلك ، فأمر ثانوى عنده .

وفي هذه الأثناء ألف أبو زيد الأنصارى (٢١٥ هـ) كتابيه : نعت الغنم ،

والإبل والشاء . ثم ألف أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (٢٢١ ه) كتاب الغنم وألوانها وعلاتها وأسبابها . ولم يصل إلينا شيء منها ، ولا وصلت أسماء كتب أخرى مستقلة في الغنم ، وإنما تناولها بعض أصحاب الموسوعات ، التى نلقى نظرات عليها في دراستنا الآتية .

جعل أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤ ه) في « الغريب المصنف » كتابا للغنم ، يقع في عشر صفحات ، وينقسم إلى ١٣ بابا تعالج نواحى مختلفة منها ، هى : حمل الغنم ونتاجها ، رضاع الغنم وألبانها ، أسنانها وأولادها ، نعوت الضأن في شياتها ، شيات المعز ونعوتها ، نعوت الغنم في شحومها وغيره ، نعوت ذكور الغنم وسيرها ، جماعات الغنم وأسماؤها ، أمراض الغنم ، خصاء الغنم وغيرها ، علامات الغنم التى تعرف بها وجَسّها ، حلبها ، مواضعها حيث تكون . وسار المؤلف في البابين : الأول والثالث سيرا زمنيا ، وفي الباب الثامن لجماعاتها تصاعديا . وكان يورد فيها اللفظ ويفسره ويستشهد عليه ، أو يورد الحالة ثم اللفظ الذى يطلق عليها . وكثيرا مابيّن الفعل الذى يطلق في تلك الحالة أيضا ، والتفت إلى جمع المفرد ، واللغات ، والمترادفات ، والروايات في الشعر (مرة واحدة) والألفاظ التى تطلق على غير الغنم وتقابل الألفاظ المطلقة عليها . ونبه على اتفاق اللغويين على بعض الألفاظ . والتزم المؤلف أن يعزو كل قول إلى صاحبه ، فظهر اللغويون الذين اعتمد عليهم . وكان على رأسهم أبو زيد الأنصارى ، الذى روى عنه الأبواب الرابع والخامس والعاشر برمتها تقريبا . أما الأبواب الأخرى فألفها من أقوال أبى زيد والأموى والأصمعي والفراء والأحمر واليزيدى والكسائى وأبى زيد الكلابى وأبى عبيدة (قليلا) من اللغويين ، والعَدَبّس الكنانى وأبى فقعس وأبى الوليد وأبى شبل من الأعراب .

ونرى الأبواب والمادة السابقة نفسها في كتاب النعم والبهائم المنسوب إلى ابن قتيبة (٢٦٧ ه) مع الاختصارات التى رأينا صاحب هذا الكتاب يجريها فيما أخذه من الغريب المصنف . فلا تغيير في خطته في هذه الأبواب أيضا عما عهدناه هناك(١) .

---

(١) انظر المعجم العربى للمؤلف .

وجعل الخطيب الإسكافي (٤٢١ هـ (للمعز والضأن بابا واحدا من كتابه مبادىء اللغة، ضم فيه خمسة فصول، شغلت قريبا من صفحتين . وعرّف في أولها المعز وأبناءها في أسنانها المختلفة ، وفي ثانيها شياتها ، وفي الثالث الضأن وأسماء الذكور والإناث وأشار إلى أن أسماءها في أعمارها هى أسماء المعز ، ووصف في الرابع شياتها ، وفي الخامس أطوال قرونها وآذانها ، ولا أهمية تذكر للفصول جميعها ، وهى خالية تماما من الشواهد ، تقتصر على اللفظ وتفسيره .

واستهل ابن سيده (٤٥٨ هـ) السفر الثامن من المخصص بكتاب الغنم ، الذى شغل ثماني عشرة صفحة منه ، ضمت أربعة وعشرين بابا . ولم يتناول ابن سيده الوصف العضوى لها بالذكر ، وإنما قصر جهده على بعض الأمور العامة فيها ، مثل : أصواتها وسمنها وهزالها وجسها وخيارها وصوفها وجزه ، وأخلاقها ، ورعيها ، وعلفها ، وافتراسها ، ومواضعها ، وبعرها ، ومخاطها ، وجماعاتها ، وذبحها وصغارها وعيوبها وأمراضها وضروبها . ويرى الناظر في فهرسته عناوين مأخوذة من الغريب المصنف بنصها . ولكن دراسة الأبواب نفسها تبين أنه لم يعتمد على أبى عبيد وحده ، بل ربما اعتمد على ابن السكيت أكثر منه ، ثم اعتمد بعدهما على أبى زيد وابن دريد وصاحب العين ، والغريب أن اسم الأصمعى يكاد يختفى في هذه الأبواب . والشواهد فيها قليلة تتألف من القرآن والشعر والأمثال .

وصفوة القول أن التأليف اللغوى في الغنم لم يجد كثرة من المؤلفين ، كما وجدت الأنواع الأخرى من الحيوان ، فقلّت كتبه ، ولم يصل إلينا منها إلا أقلها ، حتى أصحاب المجاميع والموسوعات لم يفردوا لها إلا صفحات قلائل ، ولم تتعد كتبه الترتيب الموضوعى إلى الترتيب الألف بائى ، كما لم يفصل اللغويون جسد الغنم بالوصف والشرح كما فعلوا في الإبل والخيل ، وإنما اتجهوا إلى بعض الأمور التى تتصل بحياة الغنم . ومن الطبيعى لم يختلف نهج الموسوعات في تناولها للغنم عن نهجها في موضوعاتها الأخرى ، ولكن الأمر الغريب أن أبا عبيد وابن سيده لم يعتمدا على الأصمعى في هذا الموضوع اعتمادهما عليه في غيره . ولعل سبب ذلك ضآلة كتابه وقصوره .

كُتبُ النبات

مَرّ التأليف العربي في اللغة بمراحل متعددة ، فلم تظهر المعاجم بالصورة التى نراها عليها اليوم ابتداء ، ولم يرتب اللغويون كتبهم الأولى على الحروف ، وإنما بدأ التأليف اللغوى برسائل صغيرة ، جمع فيها مؤلفوها الألفاظ المتعلقة بأحد الموضوعات ، فكان الموضوع عندهم أساسَ الجمع لا الترتيبُ وفق الحروف وتعددت الموضوعات التى ألف فيها اللغويون رسائلهم ، مثل الإنسان والحيوان ، والنبات ، وغيرها من موضوعات البيئة العربية

وقد سبق لى في كتاب « المعجم العربي » أن عالجت بعض الموضوعات التى أفرد لها اللغويون العرب رسائل خاصة ، أو خصّصوا لها أبواباً وفصولاً في كتبهم العامة . وأعالج في هذا الفصل أحد الموضوعات التى عالجتها هناك ، وعُنى بها اللغويون عنايتهم بغيرها من الموضوعات .

تدل الآثار الباقية على أن التأليف اللغوى في النبات تأخر قليلاً عن التأليف في الحيوان ، وعلى أن نطاقه لم يتسع في الكتب المستقلة ، فيفرد كل نوع منه بكتاب ، كما حدث لأنواع الحيوان المختلفة . فكتب النبات يغلب عليها التعميم أكثر من التخصيص ، يظهر هذا من عناوينها ، وأغلبها : كتاب النبات ، أو كتاب الزرع ، أو كتاب الشجر ، أو كتاب النخل أو النخلة ، أو كتاب العشب ، أو كتاب البقل ، ويجمع بعض الرسائل بين نوعين من النبات أو أكثر .

واتجهت دراسة النبات عند العرب ثلاث وجهات : وجهة لغوية ، هى التى تعنينا في هذا البحث ، ووجهة طبية في كتب العقاقير ، التى تبين خصائص كل نبات في العلاج ، ووجهة عملية في الفلاحة ، ولا تعنينا الوجهتان الأخيرتان ، ولا نتحدث عنهما ولا عن كتبهما .

ولعل أول من عنى بالتدوين اللغوى في النبات النَّضْرُ بن شُمَيْل (المتوفي ٢٠٤ هـ) ، الذى خصّ الزرع والكرم والبقول والأشجار والرياح والسحاب

والأمطار بالجزء الخامس من مجموعته اللغوية المسماة « الصفات »
(ابن النديم : الفهرست ٥٣ ليبسك) .

أما أول من أفرد نوعاً من النبات بكتاب خاص ، فلعله أبو عمرو الشيباني (المتوفي ٢٠٦ هـ) مؤلف كتاب « النخلة » . وأعقبه في التأليف في النخل خاصةً الأصمعي (المتوفي ٢١٣ هـ) تحت عنوان كتاب « النخلة » (ابن النديم ٥٥) .

، قد نشر الأستاذ هفنر كتاباً نسبه إلى الأصمعي تحت عنوان كتاب « النخل » (البلغة في شذور اللغة ٦٤ — ٧٢ ، بيروت ١٩٠٨) . ويقع الكتاب في تسع صفحات ، حاول فيها المؤلف شيئاً من ترتيب ، فجعل كل فقرة أو أكثر — من الكتاب ، خاصةً بجانب من الجوانب المتصلة بالنخل . وأتي بهذه الجوانب على النحو التالي : صغار النخل — نعوت السعف والكَرَب والقُلْب — حمل النخل وسقوطه — طَلْعه وإدراك تمره — تغير تمره وفساده — نعوت طوله — نعوت حمله — أجناسه — عيوبه — نعوت عذوقه — إعراؤه ورفع تمره بعد الصِّرام — نعوته في شربه ونباته — جماعاته — — أسماء الأماكن التي يزرع فيها .

ومن الطبيعي أن معظم هذه الفقرات لم تتعد أسطراً معدودات . وبالرغم من محاولة الترتيب وصغر المادة ، اضطرب المؤلف في بعضها ، فوزعه في مواضع متفرقة دون سبب . واتبع الكاتب في تناول بعض الموضوعات منهجاً زمنياً ، ولم يتبع في بعضها الآخر منهجاً خاصاً ، فكان في الموضوعات الأولى يصف ما يتناوله منذ بدايته متدرجاً به إلى النهاية ، مبيناً أوصافه في كل مرحلة من مراحل حياته. والتفت في بعض الألفاظ التي ذكرها إلى ما فيها من لهجات ، ونسب كلاً منها إلى من يتكلم به ، فأشار إلى لهجات ينطق بها أهل الحجاز ، ونجد ، والمدينة ، وبلحارث بن كعب . وكثيراً ما كان يشير إلى مفردات الألفاظ التي يذكرها وجموعها ، ومرادفاتها ، وبعض ما يشتق منها عامةً ، والأفعال خاصةً . ولم يرد في الرسالة من الشواهد غير بيتين من الشعر ، نسب أحدهما إلى قائله : طرفة بن العبد ، ولم ينسب الآخر ، مع التعليق عليه في اختصار .

ونسبة الكتاب إلى الأصمعي مشكوك فيها . فقد ذكر محققه — الدكتور أوغست هفنر — أنه قد عثر عليه في كتاب محفوظ بالمكتبة الظاهرية في دمشق يضم مجموعة من الرسائل ، وذكر أن الرسالة لم يدون عليها اسم مؤلفها ، وإنما رجح هو أنها للأصمعي ، لأن صاحب لسان العرب قد نقل كثيراً منها ، بالحرف الواحد مع عزوه إلى الأصمعي . (ص ٦٤) . ورجح في موضع آخر (ص ٧٣) أن تكون الرسالة من رواية أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي .

وعارضه في هذه الآراء لويس شيخو ، فذهب إلى احتمال كون الرسالة لأبي عبيد القاسم بن سلاّم (المتوفي ٢٢٤) ، لأن ما فيها من شروح للمفردات يوافق ما جاء في لسان العرب والمخصص لابن سيده منسوباً لأبي عبيد . كما ذهب إلى احتمال كونها لأبي حاتم السجستاني تلميذ الأصمعي ، رواها عن أستاذه وعن أبي عبيد أيضاً ، جمع فيها بين روايتيهما . (ص ٦٣) .

وتبين دراسة الكتاب ، ومضاهاته بما في الغريب المصنف لأبي عبيد ، أن الشاهدين الشعريين ، وبعض ما فيه من لهجات ، مروي عن غير الأصمعي ، بل لقد صرح في الرسالة بالرواية عن الكسائي . ولا ينفي هذا عن الأصمعي اهتمامه باللهجات ، وإيراده بعض الشواهد الشعرية الأخرى ، التي أسقطت من الرسالة ، وحفظها الغريب المصنف . والأمر الذي لا شك فيه ، أن الرسالة بصورتها الحالية ليست خالصة للأصمعي ، إذ لعبت فيها أيدي الرواة بعده . وأميل إلى أنها من رواية ابن قُتَيبة ، لا أبي عبيد ، ولا أبي حاتم . فالرسالة موجودة مع مجموعة رسائل يُنسب بعضها لابن قتيبة ، مثل كتاب النَّعَم . والمنهج الذي اتبعه ابن قتيبة في كتاب النعم هو المنهج الذي اتبعه مؤلف هذه الرسالة . فقد اعتمد كل منهما أساساً على الغريب المصنف لأبي عبيد ، فوضعه أمامه ، وأخذ يطالع فيه ، وكلما مر أمامه اسم أحد اللغويين الذين ينقل عنهم أبو عبيد ، ضرب عليه ، وتخفف من الشواهد الشعرية الكثيرة . ولقد وقع في خطأ يدعم هذا الرأي ، إذ حذف بيتاً من الشعر ، كان قد أورده أبو عبيد عن الأصمعي ، وأهمل أن يحذف التعليق عليه ، فبقي في الرسالة قلقاً بعض الشيء . كذلك أورد كثيراً

من الأقوال التي لم يروها أبو عبيد عن غيره . ومهما تكن جلية الأمر ، فالغالبية العظمى من مادة الرسالة للأصمعي ، كما يبين من تصريحات أبي عبيد في الغريب المصنف .

وهذا مثال يوضح طريقة المؤلف في تناول مادته . قال : « الطَّلْع ، وهو الكافور ، وكذلك التي تتخذ من الطِّيب . ويقال : هو الكافور . والضَّحْك : حين ينشق . ويقال : الكافور : وعاء طلع النخل . ويقال له أيضاً : قَفُّور : فإذا انعقد الطلع حتى يصير بلحاً فهو السَّيَاب (مخفف) والواحدة سَيَابة ، ويقال : وبها سُمي الرجل . فإذا اخضرَّ واستدار قبل أن يشتد فأهل نجد يسمونه : الجَدَال . فإذا عظم فهوالبُسرْ. فاذا صارت فيه خطوط وطرائق فهو المخطَّم . فإذا تغيرت البسرة إلى الحمرة قيل : هذه شُقْحة ، وقد أشقَح النخلُ . فإذا ظهرت فيه الحمرة قيل : أَزْهَى النخلُ ، وهو الزَّهْو ، وفي لغة أهل الحجاز : الزُّهْو . فإذا بدت فيه نقط من الإرطاب قيل : قد وَكَّتَ ، وهي بُسْرة مُوَكِّتة . . . » .

ثم ألف ابن الأعرابي (المتوفى ٢٣١ ﻫ) كتاب « صفة النخل » — (ابن النديم ٦٩ وياقوت : معجم الأدباء ١٨ : ١٩٦) — ولم يصل إلينا شيء عنه .

وألف أبو حاتم السجستاني (المتوفى ٢٥٥ ﻫ) كتاب « النخلة » — (ابن النديم ٥٨ وياقوت ١١ : ٢٦٥) — وقد نشر الأستاذ برتلميو لجومينا Bartolomeo Lagumina في روما سنة ١٨٩١ الكتاب . ويرى الناظر فيه ظاهرة فريدة لا تتكرر في كتاب آخر ، إذ ينقسم الكتاب إلى قسمين واضحين ، يستهل كل منهما ببسملة وصلاة ، كأنه كتاب مستقل . وعالج المؤلف في القسم الأول مكانة النخلة ، وأورد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال المأثورة عن الصالحين في تفضيل النخل ، وبين مواطن وجود النخل من الدنيا . وكل ذلك أمور لم نر أحداً من اللغويين حاول أن يتكلم عليهـا في رسالة أخرى من الرسائل اللغوية . ولعلي لا أتعدى الصواب حين أعدها مقدمة للكتاب ، فهي لا تشغل غير خمس صفحات :

قال : « النخلة سيدة الشجر ، مخلوقة من طين آدم صلوات الله عليه . وقد ضربها الله جل وعز مثلاً لقول : « لا إله إلا الله » ، فقال تبارك وتعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً » وهي قول : « لا إله إلا الله » ، « كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ » وهي النخلة . فكما أن قول : « لا إله إلا الله » سيد الكلام ، كذلك النخلة سيدة الشجر . . . وإنما النخل قدّره الله جل وعز للعرب في جزيرة العرب وفي المشرق ، ومنه شيء في المغرب ، وأكثره في العراق فالذي بالمغرب بأفريقيه على خمس ليال منها ، بموضع يقال له قصطيلية ، ثم حتى يبلغ وادى طبيب بقرب مصر ، واد فيه مسيرة أيام كثيرة . . . » .

وحاول المؤلف في أول القسم الثاني من كتابه شيئاً من ترتيب . فصدره بذكر النوى وأوصافه وأجزائه ومنافعه وطريقة زرعه وزمنه ، ثم تتبع حياة النخلة في مراحل نموها المختلفة . ولما خرج من هذا التتبع لم يلتزم ترتيباً ما ، وإنما أخذ يعالج مجموعة من الجوانب المختلطة ، مثل أوصاف النخل وأجزائه ، ونضج البُسْر وأمراضه ، وأنواع التمر وجنيه ومرابده ، وجماعات النخل ، وخلط كل هذه الأمور بعضها ببعض . ثم ختم الكتاب ببعض الأخبار عن الأراضى التي تنبت النخل .

والسمات الواضحة على الكتاب اهتمامه باللهجات ، والإكثار من إيرادها ، وخاصة لهجات طيىء والمدينة ، لروايته عن ابن رُوَيْشِد الطائي والمحرر المدني وغيرهما ؛ والإشارة إلى الألفاظ المعربة . وذكر المؤلف بعض من روى عنهم ، كأبي زيد الأنصاري والأصمعي ، من اللغويين ؛ وأبي مجيب وأبي الحجاج ومحمد ابن عبد الملك الأسدي من الأعراب . واعتمد في بعض مواده على مدونات ، فذكر أحد كتب أبي زيد (ص ١٣ ، ٢٢) ، وإن لم يصرح بعنوانه . وينفرد الكتاب عن غيره من الرسائل اللغوية بالإكثار من إيراد الأحاديث النبوية إكثاراً لافتاً للنظر ، ورواية بعض الخرافات ؛ ثم يشارك غيره في الاستشهاد بالآيات ، والأشعار ، والأمثال ، والتعليق على بعض الشواهد ، وإهمال ذلك في بعضها الآخر .

ونمثل لتناول المؤلف لمـادته في الكتاب بقوله : « قال الطائي : ويُزرع النوى في آخر الشتاء مستقبلاً الصيف . فإذا وجَد النوى حَرَّ الأرض نَبَتَت بإذن الله جل وعز ، وربما جُعل على غرار واحد ، قال : يعني « مسـطراً » . قال الراجـز : * على غـرارٍ ومثـالٍ واحدِ * أراد اطراد أبيات الرجز لأن قبله : * ومن طرازِ الرجز الأجاودِ * قال : وربما ضاقت الأرض ، فصارت في الموضع اللفة . واللفة : المجتمع منه . قال : وفي كل زمانٍ يُغرس إلا أن هذا الوقت أحب إليهم . فيمكث النوى تحت الأرض خمس عشرة ليلـة إلى العشرين ، ودون ذلك . ويقال له : الزَّريعة ، والجميع الزُّرعان . ثم يطلع . فقال أبو مجيب والحارث بن دُكَين : أول أسمائها النـَّقـيرة . والنقيرة : سُرَّة العجمة . وقال أبو زيد : النقير : النقرة التي في ظهر النواة . . . قـال أبو زيد : يقال للقِـنْو : المِطْو أيضًا . والعَذْق ، بالفتح ، عند أهل الحجاز : النخلة . وأما العِذْق ، بالكسر : فالقنو . ويقال : القنـا . والأجمـع : الأَقْناء . ولغة طيىء : القِنا ، بكسر القاف . وأهل الكوفة يسمون العِذق : الكِباسة ، والجميع : الكَبائس ، وثلاث كِباسات . . . »

وألف الزُّبَير بن بَكـَّار (المتوفى ٢٥٦ هـ) كتاب « النخل » — (ياقوت ١١ : ١٦٤) — ولا معلومات لدي عنه .

وينقضي القرن الرابع دون أن يصل إلينا أن أحداً من أهـله ألف في النخل خاصةً ، أو تعرض له في أحد فصول كتبه اللغوية .

فإذا انتقلنا إلى القرن الخامس ، وجدنا ابن سِيْدَه (المتوفى ٤٥٨ هـ) قـد جعل للنخل كتاباً في السفر الحادي عشر من المخصص ، يبتديء من الصفحة ١٠٢ ، ولا أدري نهايته على وجه اليقين ، إذ انتقل المؤلف من النخل إلى الأشجار والفواكه دون تنبيه ، ويحتمل أن يكون آخره في الصفحة ١٣٦ ، فيشمل بذلك ما قاله عن التمر . وقد خلط المؤلف فعلاً ، في الأبواب الأخيرة ، بين أبواب النخيل وأبواب التمر .

وسار ابن سيده مع النخل من ابتداء دورة حياته إلى نهايتها . فابتدأ بالغرس ، وصغار النخل ، فوَصْفِ أعضائه من الأصول والسَّعَف والكَرَب والعذوق وترجيبها ، فوَصْفِ طوله وقِصَره واصطفافه وشربه وجماعاته ، ثم حمله وثمره وبكوره وتأخره ونضجه وصرامه وآفاته . ثم عالج التمر وأوعيته وجماعاته وطوائفه وعصيره ونعوته وآفاته وأجناسه وأسماءه . وقد اختل الترتيب منه في بعض الأبواب ، فوزع المادة الواحدة في أكثر من باب ، وفرّق بينها أحياناً ، ووضعها في غير موضعها في أحيان أخرى .

واعتمد المؤلف في هذا الكتاب أساساً على كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري ، فاتخذه الهيكل الذي ملأه ببعض المعلومات الإضافية ، التي استمدها من الغريب المصنف لأبي عبيد خاصةً ، ومن أبي علي القالي ، ثم من غيره من اللغويين الذين استمد منهم في كتبه الأخرى .

واتبع المؤلف النهج الذي كان يتبعه في كل كتب موسوعته « المخصص » ، فحاول أن يورد أقوال اللغويين في اللفظ الواحد ومشتقاته في موضع واحد ، والتفت إلى المفرد والجمع منها ، واستطرد إلى المسائل النحوية والصرفية المتصلة بألفاظه ، وتخفف من الشواهد الشعرية ، وأهمل التصريح بأسماء اللغويين الذين روى عنهم أبو حنيفة وأبو عبيد وغيرهما ، حتى إننا لا نجد اسم الأصمعي عنده إلا نادرًا ، بالرغم من المادة الكثيرة التي استمدها من كتبه . ونظر إلى أبواب النخيل نظرته إلى غيرها من أبواب المخصص ، فعدّها كتاباً مكتملاً ، ولذلك بدأها بتفسير الألفاظ العامة التي يكثر دورانها في كلامه عن النخيل ، وحاول أن يجعلها مشتملة على كل ما يتصل بموضوعه لتغني عن غيرها .

قال المؤلف : « أبو عبيد : أنْسَغت الفَسيلةُ : أخرجت قُلْبها . أبو حاتم : نَسَّغت . ابن دريد : نسَّغت ، وقيل : التنسيغ : إخراجها سعفًا فوق سعف . ابن السكيت : هو قَلْب النخلة وقُلْبها وقِلْبها . أبو زيد : سمي قلباً لبياضه . أبو حنيفة : والجمع القِلَبة والقُلوب والأَقْلاب . وقد قَلَبها : نزع

قُلْبها . وقال : قُلْبُ النخلة : رأسها اللّين الذي لم يشتد فيصير جذعا .وقيل : قلب النخلة : الخوص الذي يلي أعلاها . واحدتها : قُلْبة . ويقال لقُلْبها : الجُمّارة . أبوعبيد : والجمع : الجُمّار . ابن دريد : يقال للجُمّار : الجامور ، فصيحة .... قال سيبويه : تَمْرة وتَمْر وتُمُور وتُمْران ، وليس كلُّ جنس يُجمَع ، ألا ترى أنك لا تجمع البُرَّ ولا الشعير . قال : وقالوا : التُّمران ، فثُنّي على إرادة النوعين من التمر . وأنشد :

أَغَرَرْتَني وزعمتَ أنك لابنٌ بالصيف تامِرْ

أبو عبيد : تَمَرْتُ القومَ أَتْمُرُهم : أطعمتهم التمر . صاحب العين : وتمّرتهم كذلك . أبو عبيد : أَتْمَرَ القومُ : كثر عندهم التمر . صاحب العين : التتمير : تيبيس التمر . أبو عبيد : الأسودان : التمر والماء ، وقد تقدم في الماء . غيره : العَتيق : التمر . وخصص بعضهم القديم منه ، وقد تقدم . . . »

وفي القرن الخامس أيضًا عقد عيسى بن إبراهيم الرَّبَعي (المتوفى ٤٨٠ ﻫ) بابـًا للنخيل في كتابه « نظام الغريب » ، شغل ثلاث صفحات (٢٠٧ — ٢٠٩). فوصف السعف وأجزاءه ومراحل نضج التمر . وأشار قليلاً إلى بعض أوصاف النخل . وأتى ببعض الشواهد من القرآن والشعر والأمثال . ولا قيمة للباب .

قال المؤلف : « الباسقات والبواسق : هي النخيل . والسَّحُوق : أطول ما يكون من النخل . والوَدِيّ : هو صغار النخل الملتفّ . والسعف : عيدان النخل إذا علاها الورق ، واحدتها سَعَفَة . والورَق : الخوص . والشّطْب والأبْلُمة : واحدة الخوص . . . » .

ولا أعرف أحداً ألّف في النخل غير السابقين ، ولكن المترجمين لأبي زيد الأنصاري (المتوفى ٢١٥ ﻫ) عزوا إليه كتاباً في « التمر » — (ابن النديم ٥٥ ، وفهرسة محمد بن خير ٣٧١) — ولم يصف أحد هذا الكتاب ، لذلك لا أدري أهو قاصر على التمر أم يتحدث أبو زيد فيه عن التمر وعن النخل عامةً، كالكتب

التي تناولتها . ومن اعتماد ابن سيده وغيره على أبي زيد ، في كلامهم على النخل ، وفي إيرادهم أقوالاً صادرة عنه ، ربما نستنتج أن أبا زيد وصف النخل أيضاً ، ولكننا لا نزال غير قادرين على القطع بأنه فعل ذلك في الكتاب الذي نتحدث عنه ، وإن كان ذلك هو المظنون .

وألّف في الشجر خاصةً محمد بن حبيب (المتوفى ٢٤٥ هـ) ثم أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه (المتوفى ٣٧٠ هـ) . وقد نشر صمويل ناجلبرج Samuel Nagelberg الكتاب الثاني سنة ١٩٠٩ ، ليحصل به على درجة الدكتوراه . وتبين دراسة الكتاب أن ابن خالويه قسم النبات الذى تناوله في كتابه إلى ثلاثة أنواع : الشجر الشائك ، والكلأ ، والجَزْء . وصَنَّف الأشجار في النوع الأول إلى صنفين : العِضاه ، وغير العضاه . وجعل العضاه في قسمين : العضاه الخالص ، وهو ما عظم واشتد شوكه ، وعضاه القياس . ورأى في الأخير فرعين : العِضّ والشِّرْس ، وهما ما صغر من شجر الشوك (عضاه القياس) ، وما ليس من العض ولا الشرس ، وهو ما فيه حُجَز صغار كأنها الشوك .

وصنّف الكلأ صنفين : العشب ، وهو ما عظم منه وغلظ ، والبقل ، وهو ما دَقّ . أما النوع الأخير : الجزء ، وهو الذى يَجْزَأ به (أى يستغنى به) المال (: الإبلُ) ، فلم يصنفه .

وسار المؤلف في الشجر الشائك على نظام الأقسام : فقدّم الكلام على العضاه الخالص (ص ١ — ٤) ثم ما ليس من العض والشرس من عضاه القياس (ص ٥) ثم العض والشرس (ص ٦ — ٨) ثم ماليس بعضاه خالص ولا عضاه قياس (٨ — ١٠) . أما القسم الخاص بالكلأ (١٠ — ١٨) فلم يفرد كل صنف من صنفيه عن الآخر ، وإنما اكتفى بالتنبيه على كون كل نبات يذكر من العشب هو أو البقل . ومن الطبيعى أنه لا توجد تقسيمات في القسم الأخير ، والحق أنه غير خاص بشجر الجزء وحده ، بل ذكر فيه المؤلف أشياء كثيرة .

فبدأ باليابس من الشجر (١٩) ثم ماتكسر من عيدانه (١٩) ثم ما احمر منه (١٩) ثم المختلط يابسه برطبه (٢٠) ثم ما كسر منه (٢١) ثم المواضع التى يكثر فيها الشجر (٢٢) ثم بقية الشجر (٢٢) ثم شجر الجزء (٢٤) ويختمه بمتنوعات أخرى .

ويقوم منهج ابن خالويه في هذه الأقسام على ملء كل قسم منها بأسماء النباتات التى تنتمى إليه ، ووصفها في إيجاز . ويعنى في وصفه بالصورة الخارجية للنبات ، وإقبابه . ومواطنه من المرتفعات أو السهول أو الرمال أو ما إليهما ، وأسماء زهره . وزمن إنباته ، واستعماله وريحه أحياناً . وقد يلتفت إلى الأفعال المشتقة من أسمائه وصفاته . أما الشواهد فغاية في القلة عنده . فميزته الصحيحة إنما هى في وصف النبات وبيان عائلته ومواطن نموه وزمنه وزهره .

وهذا مثال من الكتاب ، قال : « فمن العضاه السَّمُر ، وواحدته سَمُرة ، وهى شجرة حجازية نجدية شاكة ، ومنبتها بكل مكان ما خلا حُرّ الرمل . ويقال لنَوْرها أول ما يخرج : البَرَمَة ، ثم بأول ما يخرج من بدءٍ : الحُبْلَة . وكُعْبُورةُ : نحو بدء البُسْرة . فتيكَ البَرَمَةُ ينبت فيها زَغَب بيض هو نَوْرُها . فإذا خرجت فتيك البَلّةُ والفَتْلة . فإذا سقطن عن طرف العود الذى ينبتن فيه نبتت فيه الحُبْلة في طرف عودهن وسقطن . والحُبْلة : وعاء الحَبّ كأنها وعاء الباقلاء ، ولا تكون الحبلة إلا للسَّلَم والسَّمُر . وأما جميع العضاه بعدُ فالسِّنَفة مكان الحبلة ، وفيها الحب ، وهن عراض كأنها نصالٌ غير الطَّلْح ، فإن وعاء ثمرته العُلّف ، وهو سنفة عراض إلا أن اسمها العُلّف . »

وألف في الكَرْم خاصةً أبو حاتم السجستاني (المتوفي ٢٥٥) ، كتاباً وصل إلينا ، وحققه الدكتور هفنر (البلغة في شذور اللغة ٧٣ — ٩٤) ، ورجّح نسبته إلى الأصمعى ، لأنه وجده مع كتاب النخل الذى سبق الكلام عليه . والحق أن الكتاب لأبي حاتم ، إذ نسب إليه ابن النديم كتاباً بهذا الاسم (الفهرست ٥٨) ، ولم ينسب أحد كتاباً في الكرم إلى الأصمعى . أضف إلى ذلك أن الكتاب في

المخطوط منسوب إلى أبي حاتم ، وأن سياق الكلام فيه يدل على أنه يستمد من الأصمعي أحياناً لا دائماً ، وأن نسبة كتاب النخل السابق إلى الأصمعي مشكوك فيها ؛ بل ضعيفة كما رأينا .

ويتناول هذا الكتاب كثيراً من الأمور المتصلة بالكرم ، مثل دورة حياته ، وضروبه ، وأوصافه ، ونُضْجه ، وحَبّه ، وأسماء الخمر ونعوتها ، وعمل الرُّبّ والمَرِيث والخل منه ، وبعض الأدوات التي تستخدم في زراعته وما ماثل ذلك . ولكن المؤلف لا يراعي فيها الترتيب ، لأن الأهمية عنده ليست في هذه الأمور ، بل في أسمائها لدى القبائل المختلفة . ولذلك أتى برجلين : طائفي وجُذامي ، لم يسمهما ، وبثالث جَعْدي كناه أبا علي ، ورابع كناه أبا الخطاب ولم ينسبه إلى قبيلة ما ، وربما كان أبا الخطاب عمرو بن عامر البَهْدلي (ابن النديم ٤٧) أو الأخفش الأكبر ، وأتى بجماعة أخرى من الطائف غير من ذكرناهم أولاً ، وجعل كل واحد منهم يقص عليه قصة حياة الكرم والعنب وما يتصل بها ، ويعطي كل شيء اسمه عندهم ، وهو يدون ما يسمع . ولذلك تغلب على الكتاب الصبغة الشخصية ، وصيغة المتكلم ، والناحية العملية ، وخاصةً في الفقرات التي تصف زراعة العنب ، والصناعات القائمة عليه . ونتج عن ذلك أيضاً أن تكررت قصة حياة العنب حوالي أربع مرات ، مع بعض اختلاف في المناحي التي التفت إليها في كل مرة ، وفي بعض الألفاظ . ولكن المؤلف كان أميل إلى الطائفي ، فأكثر من الاعتماد عليه في كل الموضوعات التي عالجها . وذلك أمر طبيعي ، لأن الطائف موطن الكرم والفواكه في شبه الجزيرة العربيــة .

وورد في الكتاب بعض أسماء اللغويين ، لا سيما الأصمعي ، كما يبدو أن بعض الزيادات تسربت إليه عن غير أبي حاتم . وليس للمؤلف منهج واحد في علاجه للأمور السابقة ، إذ كان المنهج زمنياً في قصة الكرم ، وعندما عالج ضروب العنب قدّم قائمة بأسمائها ، ثم تناول كل ضرب منها بالوصف والتوضيح مع المحافظة على ترتيبه في القائمة . ولكنه لم يراع ترتيباً يذكر في بقية الموضوعات

وكان في مادته يلتفت من حين إلى آخر إلى المفرد والجمع ، والأفعال المشتقة من الألفاظ التى يذكرها ، ويروى بعض المعربات في أسماء الخمسر عن الأصمعى ، ويعلق على بعض الشواهد الشعرية القليلة التى يوردها .

ونمثل له بالفقرة التالية التى يتحدث فيها عن ضروب العنب : « فأما الجُرَشيّ فأبيضُ صغار الحَبّ ، أولُ العنب إدراكا . وأما الأقمْاعيّ العربيّ فأبيض ، عظامُ الحُبَة (١) (بتخفيف الباء) ، كثير الماء . وأما الأقماعى الفارسى فأعظم حَبّاً من العربي ، وأقل ماء ، واكثر شحما . وأما الشّوكيّ فأبيض ، قليل الماء ، نحوٌ من عِظَم الأقماعى ، ينشق حبه على شجره . وأما الرّازقي فأبيض ، داخلته زُرْقة ، طوال الحب . وأما أم حبيب فسوداء زرقاء تعظم عناقيدها ويعظم حَبُّها . . . »

***

وأول من ينسب إليه كتاب عام في النبات أبو عبيدة (المتوفي ٢١٠ هـ) ، الذى قيل : إنه ألف كتاب « الزرع » – (ابن النديم ٥٤ ، ياقوت ١٩ : ١٦١) –. ولم يصل إلينا عنه شيء .

ونسب ابن النديم (٥٥) إلى الأصمعى (المتوفي ٢١٣ هـ) كتاب « النبات والشجر » . وقد عثر الدكتور هفنر على الكتاب وحققه (البلغة في شذور اللغة ١٨ – ٥٩) . ويشغل هذا الكتاب أربعين صفحة ، ويختلف في تنظيمه عن كتاب النخل – للمؤلف نفسه – كل الاختلاف . فقد سار فيه سيراً تحكمياً ، يغلب عليه توارد الخواطر دون محاولة لتنظيم . وأراد المحقق أن يضع عناوين لبعض الفقرات ، فنجح آونةً وأخفق أخرى. وأحاول أن أنظم الموضوعات التى تناولها ، مع غض النظر عما في أقسامه من خلط كثير : وصف الأرض ذات النبات ، وصف بعض النباتات في مراحل حياتها المختلفة ، ويختلط هذان الموضوعان عنده تماماً ، أسماء أحرار البقول ، أسماء غير الأحرار منها ، ذكور البقول ، غير الذكور ، تقسيم النبات إلى شجر وحمض وخلة ، أسماء الحمض ، الشجر ، ما ليس بشجر ، النبات . ويخلط بين الأقسام الأخيرة جميعا.

(١) الحبة تكتب بالضم والتخفيف – : حبة العنب (القاموس : حبو)

وكان في الموضوعين الأولين يذكر صفة الأرض أو النبت ، ثم يطلق عليه اسمه الخاص ، ويكثر فيهما من الشواهد الشعرية التى ينسبها إلى أصحابها حيناً ويهملها حيناً آخر ، ويعلق عليها مرةً ويتركها ثانيةً ، ويشير إلى ما فيها من روايات في مواضع . والتفت في بعض الأحيان إلى الفعل المشتق من اللفظ الذى يعالجه . واستهلّ قسمى أحرار البقول وذكورها بتعريف كل منهما ، ثم سرد أسماء كل نوع ، ووصفها في بعض الأحيان وصفاً موجزاً ، أو أتى بمـرادف آخر . وأدخل ابن دريد بعض إضافات في هذا القسم نَبّهَ عليها . والشواهد في هذين القسمين قليلة . وحاول المؤلف في الأقسام الأخيرة أن يتخذ شيئاً من النظام ، فأراد أن يقسم النبات إلى: حمض ،وشجر ، وغير شجر ، وأن يرتب كل نوع منها وفق الموطن الذى ينبت فيه : السهول ، أو الحجاز ، أو نجـد ، أو الرمال . وفعل ذلك في الحمض ، ولكن اختل الترتيب في بقية الأنواع . وتتبع في بعض المواضع مراحل حياة بعض النباتات ، واستشهد فيها بالأمثال والنثر . فالكتاب إذن يقدم مادةً حسنة في الأسماء ، وفي مواطن كل نبات ، ولكنـه قليل الوصف للنبات ، كثير الاضطراب .

ونتخذ من الفقرة التالية مثالاً ،قال : « يقال : رأيت أرض بنى فلان غِبَّ المطر واعدة حسنة : إذا رُجى خيرها وتمام نبتها في أول ما يظهر النبت . ويقال: وَشَمت الأرضُ : إذا رأيتَ فيها شيئاً من النبات . وأنشد :

كم من كَعابٍ كالمَهاةِ المُوْشِمِ

وينشد : المُرْشِم . وأرْشَمتِ الأرضُ كذلك . والمُوشِم : التى قد نبت لهـا وشم من النبات أى شيء يُرعى فيه . ويقال : أبْشَرَتِ الأرضُ : إذا حسـن طلوعُ نبتها إبشارا . ويقال بَذَرتِ الأرضُ تبذُر بَذْرا : إذا ظهر نباتُهـا متفرقا . ويقال : وَدَسَتِ الأرضُ وَدْساً ، ووَدَّسَتْ توديساً حسناً في أول ما يظهر نباتُها . قال البَعيث :

كأن قُتُودى فوق طاوٍ خَلاله ببَيْنونة القصوى عَذابٌ مُوَدَّسُ

والعَذاب : المكان الليِّن السهل ، وهومستدقّ الرمل حيث ينقطع معظمه .

وبارض النبت : أول ما يبدو منه . ويقال إذا ظهر نبات الأرض : قدبَرَّضت تبريضاً ، وتبرّضت . فإذا ارتفع بارضُ البُهْمَى شيئاً فهو جَميم ، فإذا ارتفعت وتمت من قبل أن تتفقأ فهى الصَّمْعاء . . . »

ونسب مـن ترجم لأبي زيـد الأنصارى (المتوفي ٢١٥ ﻫ) له كتابا باسم « النبات والشجر » (ابن النديم ٥٥) . ووصفه ابن خلكان (١ : ٢٠٨) بأنه كتاب حسن جمع فيه أشياء غريبة . ويؤسفنا أننا لم نعثر عليه بعد .

ثم عقد أبو عبيد القاسم بن سَلام (المتوفى ٢٢٤) كتاباً في الغريب المصنف للشجر والنبات ، شغل ١٤ صفحة ، قسمها إلى ١٥ باباً . ولم يسر المؤلـف في تبويبه على نظام مطَّرد ، ولكنه مال إلى تقديم الكلام على بعض النواحي العامة في الأشجار ، مثل أشجار الجبال فالسهول فالرمال ، فالعضاه والحمض والخلـة وآجام الأشجار . ثم تناول أحوالها في دورتها من ابتداء نباتها وتوريقها ، وإثمارها وما يبقى منها ، ودورة حياتها ، وختم الأبواب بإيراد أسماء ضروب النبـات المختلفـة .

والتزم في أكثر هذه الأبواب طريقة إعطاء قوائم بأسماء النباتات ، مع الإشارة القاصرة إلى أنه نبت ، دون أن يحاول وصفه ، ووصف قليلاً مظهر النبـات الخارجي من لون وصورة . فالتعريفات عنده قاصرة . ولكنه في الأبواب التي تتبع فيها حياة الأشجار سار فيها سـيرًا زمنيـًا مرضيا . وكثيرًا ما التفت إلى إيراد المفرد والجمع من الألفاظ التي يوردها . وكان أكبر اعتماده في هذا الكتاب على الأصمعي ، الذي نجد اسمه في مقدمة كثير من أبوابه ، ثم على بعض اللغويين الآخرين كأبي عمرو بن العلاء ، وأبي زيد الأنصاري ، والكسائي ، وأبي عبيدة. وحافظ على أن ينسب إليهم أقوالهم صراحة . والشواهد عنده قليلة جداً ، لا تتعدى البيت من الشعر ، في البابين أو الثلاثة أو أكثر .

وهذا مثال منه ، قال : « الأصمعي : البَرير : ثمـر الأراك . والغَضّ منه : المَرْد . والنـَّضيج : الكَبَاث . والعُلّف : ثمـر الطَّلْح ، واحـدته

عُلّفة . والحُبْلة : ثمــر العِضاة . أبو عمرو في الحبلة مثله . قال : والبَرَم : ثمــر الطلح ، واحدته بَرَمة . الفراء : المُصْعَة : ثمــر العَوْسج ، وجمعها مُصَع . الأصمعي : العُرْوة من الشجر : الشيء الذي لا يزال باقيــاً في الأرض لا يذهب ، وجمعه عُرًى ، وهو قول مهلهل :

* شجر العُرَى وعُراعر الأقوام *

قال أبو عبيدة مثله أو نحوه : إلا أنه قال : هذا البيت لشرحبيل : رجل من بني تغلب . أبو عمرو مثل قولهما في العروة أو نحوه . . . الأموي : الحُوّاءة : نبت يشبه لون الذئب . الكسائي : الذآنين : نبت . والطــرّاثيث : نبت . والواحد ذُؤْنُون وطُرْثُوث . ويقال : خرج الناس يَتذأْنَنُون ويَتطَرْثَثُون : إذا خرجوا يأخذون ذلك . ويتَمَغْفَرون : إذا خرجوا يأخذون المَغافير . . . »

ونسب ابن النديم (٦٩) وياقوت (١٨ : ١٩٦) إلى ابن الأعرابي (المتوفى ٢٣١ هـ) ثلاثة كتب من هذا اللون ، هي « النبات » و « صفة الزرع » و « النبت والبقل » ولم يصل إلينا أحدها ، ولا وصف لها .

كذلك نسب إلى أبي نصر أحمد بن حاتم (المتوفى ٢٣١ هـ) كتابي : « الشجر والنبات » و « الزرع والنخل » (ابن النديم ٥٦ ، وياقوت ٢ : ٢٨٤ — ٥) ، وإلى هشام بن إبراهيم الكَرْنَبائي — تلميذ الأصمعي — كتاب « النبات » (ابن النديم ٧٠ ، وياقوت ١٩ : ٢٨٥) ، وإلى محمد بن حبيب (المتوفى ٢٤٥ هـ) كتاب « النبات » (ابن النديم ١٠٧ ، وياقوت ١٨ : ١١٦) ، وإلى يعقوب بن السكيت (المتوفى ٢٤٦ هـ) كتاب « النبات والشجر » (ابن النديم ٧٣ ، وفهرســة محمد ابن خير ٣٨٢) ، وإلى الجاحظ (المتوفى ٢٥٥ هـ) كتاب « الزرع والنخل » (ياقوت ١٦ : ١٠٦) ، وإلى أبي حاتم السجستاني (المتوفى ٢٥٥ هـ) كتب : « الزرع » و « العشب والبقل » و « الشجر والنبات » (ابن النديم ٥٨) ، وإلى أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري (المتوفى ٢٧٥ هـ) كتاب « النبات » (ابن النديم ٥٨ ، ونزهة الألبــا ٢٧٤) . ولم يصل إلينا كتاب منها .

وألف أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (المتوفى ٢٨٢ هـ) كتابه المشهور « النبات » : ولم نعثر من هذا الكتاب إلا على مجلد واحد ، هو الجزء الخامس ، كما يذكر على الصفحة الأولى منه . وقد ذكر البغـــدادي في خزانة الأدب أنه رأى الكتاب في ستة أجزاء كبار . ويبدو أن التقسيم الذي أشار إليه البغدادي يتفق مع تقسيم النسخة التي عثرنا على جزئها الخامس . وهي نفسها تدلنـــا على وجود تقسيم آخــر للكتاب ، إذ تصرح بأن هذا الجزء الخامس يضم القطعة الأخيرة من الجـــزء السابع ، والأولى من الثامن ، من رواية أبي سعيد السيرافي . ولا عجب في اختلاف تقسيم الكتاب في النسخ والروايات المختلفة .

وقد عثرتُ على فقرة في ختام الجـــزء السابع ، وصف فيها المؤلف بعض مناحي منهجه ، تنير الطريق أمامنا كثيرًا ، كما ينيره مقال الأمير مصطفى الشهابي (الجزء الثالث ، من المجلد السادس والعشرين ، من مجلة المجمع العلمي العربي — ١ تموز ١٩٥١) ، وعنوان المقال : أبو حنيفة الدينوري ، والجـــزء الخامس من كتاب النبات .

رأى أبو حنيفة أن يتناول النبات عامةً بدراسة أولى عامة ، فيبين أجناســـه المختلفة ، وخصائصها التي تميزها عن غيرها ، ومنافع كل منها . وقـــدم هذه الدراسة العامة في كتابه ، ليقتصر في وصف النباتات بعد ذلك على ما يختص بالنبات ، ثم يشير إلى نوعه فتغنيه الإشارة عن تكرير الأوصاف والمظاهـــر في كل نبات . وشغلت هذه الدراسة العامة الأجزاء السبعة الأولى من تصنيف السيرافي ، أو الأجزاء الأربعة الأولى وبعض الخامس من التقسيم الآخر ، أي القسط الأعظم من الكتاب . ثم تناول أفراد النبات واحداً واحداً بالوصف ، ورتبها وفقاً للحرف الأول منها وحده ، أصليـــًا كان أو مزيداً ، ولم يلتفت إلى ما بعده من حروف . وشغلت هذه الدراسة قطعة من الجزء الخامس الذي عثرنا عليه ، وباقي الجزء السادس في غالب الظن ، من التقسيم الذي أشـــار إليـــه البغدادي . ولست على معرفة بعدد الأجزاء التي وصل إليها تقسيم السيرافي .

وتناول المؤلف في القطعة الباقية من الدراسة العامة صنعة القسي ، ونعوتها في حال الرمي عليها ، وما تُحَلى به ، وصفات النَبْل ، وأسماء أجزاء القِداح ، وما يُجعَل عليها ، وأسماء السهام . واستطاع الأمير الشهابي من عبارات وردت عرضًا في الكتاب أن يصل إلى معرفة أربعة عشر باباً كانت تشتمل عليها هذه الدراسة ، وهي أبواب النخل ، والكرم ، والزرع ، والأصباغ ، وأجناس النبات ، وأوصاف النبات العامة ، والعشب ، والنبات الطيب الرائحة ، واللثأ ، والصموغ ، والكمأة ، وجماعات الشجر ، وأوصاف الشجر العامة ، والزناد والنيران والأدخنة ، والنبات الذي تتخذ منه الحبال والأرشية . ومن الطبيعي أن هذه الأبواب ليست كل ماكانت تشتمل عليه الدراسة العامة .

وتناول أبو حنيفة في القسم الثاني الخاص بأعيان النبات نباتًا نباتًا من حرف الألف إلى حرف الزاي . واتبع فيه أن يقدم اسم النبات ، ويبين المفرد والجمع منه ، ثم يصفه ، ويشير إلى ما يشتق من أسمائه وصفاته من أسماء أعلام وتشبيهات ، وكان يقيم وصفه للنبات على إبراز صورته الظاهرية ، وثمره ، ورائحته ، وطعمه ، وجماعاته ، ومواطنه ، وأنواعه ، ومنافعه . وكان ينتهز أية فرصة تسنح له للاستطراد ، فقد أشار مثلاً في تضاعيف كلامه عن الأَثْل إلى استخدامه في صناعة الأواني ، ثم اعتمد على هذه الإشارة وعقد باباً لأسماء الأواني وأنواعها وأوصافها . كذلك أكثر من الشواهد كل الإكثار ، حتى ليأتي أحياناً بثلاثة شواهد وأكثر على اللفظ الواحد ، ولم يمنح شواهده الكثرة فحسب بل التنوع أيضًا ، بين القرآن والحديث والشعر .

واعتمد المؤلف فيما أورده من أقوال وأوصاف وشواهد على رواة كثيرين ، فظهرت عنده أسماء أكثر اللغويين . ولكننا نستطيع أن نتبين أنه حصل على القسط الأكبر من معارفه من ثلاثة مصادر رئيسية ، غير جماعة اللغويين : مشاهداته الخاصة ، والأعراب ، وأبي زياد الكلابي . فما أكثر المحاورات التي أوردها في الكتاب ، وكانت قد دارت بينه وبين الأعراب ، وهو يبحث عن نبات معين ، أو يدرس نباتاً معيناً . أما أبو زياد الكلابي ، فقد عرّفنا المؤلف

به ، وهو يزيد بن عبد الله ، أحد بني عبد الله بن كلاب . فهو إذن أحد الأعراب ، الذين عدّدتهم مصدره الثاني في الحصول على المعرفة ، ولكن أبا زياد لما تردد اسمه في الكتاب أكثر من غيره من اللغويين ومن بقية الأعراب ، فبرز كل البروز بين من روى عنهم أبو حنيفة ، جعلته مصدراً مستقلاً . ولم أكن في ذلك بدعاً أو مبتكرًا ، بل اتبعت علي بن حمزة البصري الذي أفرد أبا زياد بالذكر من بين من روى عنهم أبو حنيفة .

وقد حصل هذا الكتاب على إعجاب الدارسين على مر العصور ، فدأبوا على عدّه القمة التي وصل إليها التأليف اللغوي في النبات ، وقيل عنه : « لم يؤلَّف في معناه مثله » . وقد أخذ عليه علي بن حمزة البصري (المتوفى ٣٧٥ هـ) بعض الأخطاء : وجعله أحد من أفرد لهم بابًا في كتابه « التنبيهات على أغاليط الرواة » (ص ٢٥ — ٤٢) (من المخطوط رقم ٥٠٢ لغة ، بدار الكتب المصرية) . واختصره موفق الدين البغدادى (المتوفى ٦٢٩) ، (كشف الظنون ٥ : ١٦٢) .

وهذا مثال من كلامه عن أفراد النبات : « آس ، والواحدة منه آسة : هو بأرض العرب كثير ، ينبت في السهل والجبل ، وخضرته دائمة أبداً ، ويسمو حتى يكون شجرًا عظامًا ، وفي دوام خضرته يقول رؤبة :

يخضرُّ ما اخضرَّ الألا والآسُ

وفي منابته من الجبال يقول الهذلي :

تالله لا يُعجزُ الأيامَ ذو حَيَدٍ بمُشْمَخِرٍّ به الظيّانُ والآسُ

وللآس بَرَمة بيضاء طيبة الريح ، وثمرة تسودُّ إذا أينعت وتحلو وفيها مع ذلك عُلَيْقة وتسمى الفَطْس ، ذكر ذلك بعض الرواة . وزعم قوم أن الآس يسمى الرَّنْد . وأنكر ذلك أبو عبيدة . وأنكره أيضًا غيره من العلماء ، وزعموا أن الرند : شجر طيب الريح وليس بالآس . وسنذكره في بابه ، إن شاء الله .

البُسْر : بُسْر النخل ، والواحدة بُسْرة . وكلُّ غَضٍّ طري : بُسْر ، حتى الغض الذي لم يُسبَق إليه . وكل استعجالٍ بشيء قبل إناه : ابتسار . ومنه ابتسار الفحل طَروقتَه : إذا ضربها على غير اهتياج منها ، وحتى قيل في النخلة إذا لُقِّحت قبل إنَى تلقيحها . وقال ابن مُقبِل في وصف نخل :

طافت به الفُرْس حتى بذَّ ناهضَها ... عَمٌّ لُقِحن لقاحاً غير مبتَسَرِ

وقيل للبُهْمَى وهي غضّة بعدُ : بسرة . قال ذو الرمة في صفة عَيْر :

رعى بارض البُهمى جَميماً وبُسرةً ... وصَمْعاء حتى آنفتْها نِصالُها

وقال غيره فيما هو أبعد من هذا :

فعالَيْن قبل الطير ، والشمس بُسْرة ... عليها الوَلايا والسَّديل المرقَّما

فجعلها في أول طلوعها وهي غضة قبل الترحل بسرة . . . »

ونسب إلى أبي موسى الحامض (المتوفى ٣٠٥ هـ) كتاب « النبات » (ابن النديم ٧٩ ، ونزهة الألبا ٣٠٦) ، وإلى المفضل بن سلمة (المتوفى ٣٠٨ هـ) كتاب « الزرع والنبات والنخل وأنواع الشجر » (ابن النديم ٧٣ ، ياقوت ١٩ : ١٦٣) وإلى أبي عبد الله محمد بن أحمد المفجع (المتوفى ٣٢٧ هـ) كتاب « الشجر والنبات » (ابن النديم ٨٣) ، وإلى أبي القاسم البُسْتي كتاب « الأشجار والنبات » (ابن النديم ١٣٩) وكلهم لم نعثر على كتبهم .

وعقد الخطيب الإسكافي (المتوفى ٤٢١ هـ) خمسة أبواب من كتابه «مبادىء اللغة » للنبات ، شغلت ١٨ صفحة منه (١٧٠ — ١٨٨) . وعالج في الباب الأول أسماء أدوات الزرع وأجزائها وعملها ، ومراحل نضج الحبوب ، وآفات الزرع ، وأداة طحنه : الرحى ؛ وفي الثاني تعريف الشجر وأجزائه ، ومراحل نضج البلح والكرم ، والألفاظ التي تطلق على الأحوال المختلفة في حياة الأشجار ، وتعريف بعض الفواكه ، أو مجرد ذكر اسمها الفارسي ، وأسماء المواضع التي تنبت فيها بعض أنواع الشجر ؛ وفي الثالث وصف بعض ضروب صغار الشجر أو مجرد ذكر اسمها الفارسي ؛ والأمر نفسه في الرابع ، إلا أنه عالج فيه البقول بدلاً من الشجر ؛ ووصف في الخامس بعض الرياحين . وعلاج

المؤلف لمادته غاية في الاختصار ، ولذلك تقل فيه الشواهد ، ولكنها تتنوع بين قرآن وشعر وأمثال . وقام منهجه على الإشارة السريعة للشكل الظاهري للنبات ، أو ذكر المرادف العربي ، أو المرادف الفارسي . ويبين هذا أنه كان يضع نصب عينيه القراء من الفرس .

ونمثل لمنهجه بقوله : «الرُّطْب ، بضم الراء وتسكين الطاء : الرِّعْي الأخضر ، والرطبة : روضة الفِسْفِسة ما دامت خضراء . والقَضْب ، والفِصْفِصة ، والقدّاح : الرَّطْب من القَتّ . والجُفافة : ورقه إذا جف . والخلا : الكلأ الرطب . ويقال : رَطَبْتُ فرسي رَطْباً ، وخَلَيْته : جززت له الخلا . وقَصَلْته : من القَصيل ، وجمعه قُصْلان . والقُصْلة منه : قدر ما تجزّه وتحمله . وخليت الخلا : قطعته . والحشيش : ما يبس منه . . . »

أما ابن سيده (المتوفى ٤٥٨) فقد كان بحراً متلاطم الأمواج ، نظر إلى النبات نظرة عامة ، فتناوله من جميع نواحيه ، ومن أبعدها ، حتى انعدمت عنده بعض الحدود الفاصلة بين الأشياء . فالسفر التاسع من كتابه يضم كتاب الأنواء وفيه أسماء عامة المياه والأسقية . ويمتد ذلك الكتاب إلى السفر العاشر ، فيعالج البحار والأنهار والآبار والحياض ، ثم نجده يعالج الأراضي المختلفة وصلاحيتها للنبات ، وجدبها وخصبها . ويخرج من هذا الى تناول العشب والأشجار . ويمتد كلامه إلى السفر الحادي عشر ، فيكمل حديثه فيه ، ويختمه بأبواب الفاكهة والكرم والخمر . ويعقب هذا كتاب النخل ، الذي يضم في آخره — إلى جانب النخل — أنواعاً أخرى من الفاكهة والأشجار والأعشاب وما إليها . ويستمر ذلك إلى الصفحة ٢١ من السفر الثاني عشر . فابن سيده إذن حين أراد أن يتناول النبات ، نظر إلى الموضوع نظرة طبيعية ، فعالج الأمطار التي ترويه ، والأرض التي هي مهده ، ثم عالجه علاجاً شاملاً لجميع أنواعه . فكان ذلك ميزة له ، يبدو أن أبا حنيفة شاركه فيها ، إذ ينقل ابن سيده كثيراً من أقواله عنه ، حتى في وصف الأرض . ولكن هذا التوسع أدى به إلى الاضطراب والتكرير وعدم وضع الفواصل المميزة ، فلا نجد

عنده كتاباً خاصًا بالشجر ، كما جعل للنخل مثلاً . وكتاب النخل نفسه ، أدخل فيه ما ليس منه ، ولا أدري أين انتهى منه . فالأشجار والأعشاب تأتي قبل كتاب النخل وبعده أيضًا .

وقدّم ابن سيده الأبواب العامة أولاً ، كما فعل أبو حنيفة . فنجد أول الأبواب الخاصة بالنبات عنده أبواب الخصب ، فابتداء النبات وانتهاءه ، ونعوت الكلأ في القلة والتفرق ، واجتزازه ، وما يُحمى من النبات ؛ وفي الشجر أبواب أوصافه التي تعمه دون أن تخص واحداً واحداً ، وتوريقه وتنويره ، وأوصافه التي تعمه في كثرة ورقه والتفافه أو قلته ، وانحتات ورقه وسقوطه ، وأوصافه التي تعمه في عظمه ، وصغاره . ثم تناول المؤلف أسماء أجزاء الأشجار وما ينتفع بها فيه ، مع التعميم أيضًا ، مثل أبواب أسماء أصول الشجر وأعاليها . واليابس والخشن ، وعيوب العود القادح ، وأسماء الأُبَن التي في العود ، وقشر لحاء الشجر ، وغيرها .

وكان عماده الأول في جميع هذه الأبواب أبا حنيفة ، ولم يتغير منهجه فيها ، عما أُلف عنه في بقية كتبه من المخصص : من حشد للآراء المختلفة في الموضع الواحد ، وعناية بالأقوال النحوية والصرفية ، وحذف لأسماء من يروى عنهم ، وما إلى ذلك . ولكن الأبواب الأخيرة التي جعلها لأشجار الجبال قلّ فيها الحشو حتى كاد ينعدم ، فظهر فيها طابع أبي حنيفة غالبًا . فهو يصف كل نبات ، ويجعل فصلاً خاصًا لأنواعه وأوصافها ، ثم فصلاً خاصًا للمواطن الصالحة له . وأدخل في هذه الأبواب كثيرًا مما أتى أبو حنيفة به في القسم الثاني من كتابه ، ولكنه لم يستطع أن يتابعه في الترتيب على الحروف بحكم اختلاف الغرض من الكتابين . فما زال ابن سيده محافظاً على منهجه المعروف عنه في المخصص ، وعلى مزاياه فيه من جمع وشمول .

ونمثل لطريقته فيه بالفقرة التالية : « أبو عبيد : الرَّبُوض : الشجرة العظيمة . وأنشد :

تَجَوَّفَ كلَّ أرطاة رَبُوضِ

أبو حنيفة : هي العظيمة الواسعة ، وجمعها رُبُض ، ومنه قيل للقِرْبة العظيمة : رَبوض ، أي ذات رَبَض ، يعني بالربض الناحية ، وأراد الجمع ، أي أنها ذات أرباض كأرباض المدينة . أبو عبيد : الدَّوْحة : العظيمة . أبو حنيفة : هي المفترشة ، ومنه قيل للبيت الواسع : دَوْح ، ومظلة دَوْحة ، وقيل للبطن إذا عظم : انداح . والرَّداح : مثل الدوحة . وأنشد :

أما ترى بكل عَرْض مُعْرِض كلَّ رَداحٍ دَوْحةِ المحوَّض

محوضها : الشَّرَبة التي تجعل حولها لتسقى فيها . ومنه قيل للمرأة البادن العريضة : رداح . وكذلك الكتيبة العظيمة . والجمع رُدُح . وكذلك كل ضخم ثقيل . ابن السكيت : دوحة مِحْلال : يُحَلّ تحتها كالتَّلْعة المحلال . أبو حنيفة : وإذا عظمت الشجرة فهي هَيْكَلة ، والجمع هَيْكَل ، وأنشد :

في هيكل الضال وأرْطَى هيكلِ

ومنه قيل للفرس العظيم التام الأوصال : هيكل . . . »

وجعل عيسى بن إبراهيم الربعي (المتوفى ٤٨٠ هـ) للنبات والأشجار والمراعي باباً في « نظام الغريب » ، شغل قريباً من ست صفحات ، وختمه بأسما الرياحين في نحو صفحتين . وأورد الربعي أسماء الأشجار وفسَّرها بمرادفها أو بوصفها أو بوصف أوراقها أو لونها أو زهرها أو طعمها أو ما تستعمل فيه . وجمع أحياناً بين أكثر من واحد من هذه الصفات ، وترك الأسماء من غير شرح أحياناً أخرى . والباب كثير الشواهد الشعرية ، واعتمد على بعض الأمثال النثرية وعلى حديث لأبي بكر الصديق .

وهذا مثال منه : « العوْسَج : شجر ذو شوك وورق صغار ، يكون ارتفاعه عن الارض قدر ذراعين . والسَّمَرُّد : شجر ذو شوك مُعقّق . والمَرْخ والعُشَر والطَّلْح والأراك : كل ذلك مَراعٍ . والسَّيال : الطلح ، تشبه الأسنان به لبياض شوكه . والألاءة : شجرة صغيرة ، بوزن الفَعالة . والسِّدْر والضَّال بمعنى ، والعُبْرِيّ : مانبت منه على الأراك . . . »

ونُسب إلى أبي عبيد البكرى (المتوفى ٤٨٧ هـ) كتاب « النبات » (فهرسة محمد بن خير ٣٧٧) ، وإلى موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادى (المتوفي ٦٢٩) كتاب « النبات » (كشف الظنون ٥ : ١٦٢) . ولم يصل إلينا الكتابان .

وفي العصر الحديث ذهب الأستاذان عبد الفتاح الصعيدى وحسين يوسف موسى إلى تهذيب مخصص ابن سيده . فأخرجا في سنة ١٩٢٩ كتاب « الإفصاح في فقه اللغة » . ويعالج الباب السادس عشر منه الزرع والأشجار والثمار . ويضم ما في أصله المخصص من أبواب وفصول ، فيتناول الزرع من مبدئه إلى منتهاه ، وحصد الزرع ودَرْسه وتذريته وما إلى ذلك من أمور تعرض لها ابن سيده . ولكن المؤلفين تخففا من كثير من المادة والأقوال والشواهد التى كانت في المخصص ، وأدخلا عليها بعض التنظيم الحديث . فكاد كتابهما يشبه المعاجم الحديثة الصغيرة في خلوه من الشواهد ، وأسماء اللغويين المروى عنهم . والأقوال المتعددة المتفقة والمتضاربة ، ووضعه اللفظ المراد تفسيره في أول السطر. ولكنه لم يبلغ مبلغها في دقة التنظيم ، لأن بعض اضطراب المخصص انتقل إلى الإفصاح .

وهذا مثال من الإفصاح : « النبات » : الذى ينبت ، وقد نَبت ينبُت نباتا ونَبْتاً ، وأنبته الله .

النّبيت : أصل النبات الذى ينبت عليه .

المَنْبِت : المكان الذى ينبت فيه النبات .

أَنْتَشَ النبتُ : إذا خرجت رءوسه من الأرض قبل أن يُعرَف ، والاسم النّتَش . وأنتش الحَبُّ : إذا ابتل فضرب نَتَشه في الأرض . والنّتَش : ما يبدو منه أول ما ينبت من أسفل ومن فوق .

بقل النبتُ : بقل يبقُل بقولا : وذلك أول ما يطلع . . . »

وأخرج الدكتور أحمد عيسى في سنة ١٩٣٠ « معجم أسماء النبات» . وذهب فيه مذهباً حديثاً حقاً ، نظر إليه من جهة اختصاصه . فقد كان المؤلف طبيباً ،

يمر أمامه كثير من أسماء النباتات المستخدمة في الطب ، ولكنها تمر في صورة أجنبية لا يُعرف المرادف العربي لها . فبحث في كتب النبات القديمة والطب ، وتوصل إلى التوفيق بين كثير من النباتات العربية أو التي عرفها العرب ، والتي يعرفها الطب الحديث بأسماء أجنبية . فوضع هذا المعجم ليبين أسماء هذه النباتات الأجنبية بالعربية . وجعل الأسماء الأجنبية أساس الترتيب ،لأنها الأسماء التي يعرفها الدارسون ، ثم كتب أمام كل لفظ منها مقابله العربي . وأشار بالفرنسية إلى فصيلة كل نبات ، ومرادفه إن كان له مرادف طبي ، وذكر بعض الأحيان اسمه في اللغتين الفرنسية والانجليزية . ومن الطبيعي أن الترتيب كان وفقاً للترتيب الإفرنجي . ولكنه ألحق بالكتاب فهرسين كاملين : أحدهما للألفاظ الغربية (الفرنسية) ، وثانيهما للألفاظ العربية ، مما ييسر لغير المختصين بالطب معرفة مواقع الألفاظ أيضاً .

وهذا مثال مأخوذ منه :

« عين الديك — عيون الديك « A. Precaiorius L. »

شَشْم — ششم أحمر (وهو بذور هذا النبات ويسمى البندق أيضاً) — حب العروس — عُفْروس . فُلْفُل . بلّيع (اليمن)

Fam. Leguminosae

F. Liane â riglisse ; Arbre â chapelet.

a. Wild – liquorice : Bead – tree

وأخرج الأمير مصطفى الشهابي في سنة ١٩٤٣ «معجم الألفاظ الزراعية» (١) نحا فيه نحو الدكتور أحمد عيسى في التنظيم والترتيب ، إذ جعل الأصل الذى رتبه الأسماء الفرنسية للمواد التي عالجها ، ورتبها على حروف الهجاء الفرنسية.

(١) طبع المعجم في القاهرة ، سنة ١٩٥٧ طبعة ثانية منقحة ومزيدة نحو ألف لفظة جديدة فصار مجموع مواد المعجم عشرة آلاف مادة تقريبا .

ولكنه لم يقصر حديثه على النباتات وحدهـــا ، بل تناولها وتناول كل ما اتصل بالعلوم الزراعية من ألفاظ ، مثل مصطلحات أبحاث التربة والاسقاء ؛ وعلم الحراج وتربية الخيل والأنعام والنحل والأسماك والطيور الأهلية ، وما له صلة بالزراعة من حيوانات وحشرات وجويات وآلات وصناعات ومعدنيـــات واقتصاديات وغيرها .

ولم يقصر المؤلف جهده على جمع الألفاظ العربية القديمة ، أو التي استعارها العرب القدماء من غيرهـــم من الأمم وأطلقوهـــا على النباتات ، بل شارك في الوضع ، والتعريب ، والاستعارة . وقد شرح منهجه في ذلك ، فبين أنه رجح الكلمات العربية أو المولدة القديمة الموافقة أو المقاربة لمعاني الكلمات الفرنسية التي أتي بها على غيرها . وما لم يجد له مقابلاً عربيا من أسماء أجناس النبات ترجمه وفق معانيه في لغاته الأصلية ، كلما أمكن ترجمته في كلمة عربية واحــــدة سائغة . أما الأسماء الدالة على الأنواع النباتية فكلها نعوت تترجم ترجمـــة في جميع اللغات . وما كان مسمى بأسماء أعلام اكتفى المؤلف بتعريبه ، لأنـــه لا سبيل إلى ترجمته .

ونهج في علاجه لمواد المعجم أن يقدم الاسم الفرنسي ، ثم يتبعه بمقابله العربي القديم أو الذي وضعه هو له ، ثم يفسر هذا المقابل ويبين معناه ، ليوضح أسباب وضعه الاسم الذي وضعه له . ثم يذكر فصيلة النبات الذي يتكلم عنه .

وألحق بالكتاب فهرســاً مشتملاً على الألفاظ العربية والمعربة والمولدة والعامية التي أوردها في كتابه ، بصفتها الموافقة أو المرادفة للألفاظ الفرنسية ، لقرائه العرب البحث عما يريدون البحث عنه من ألفاظ عربية .

ويتبين لنـــا من ذلك أنه ربما كان أجمع كتب النباتات للألفاظ النباتية ، فالمؤلف يصرح بأنه يشتمل على قريب من ٩٠٠٠ لفظ فرنسي ، ويعني ذلك أنه يشتمل على أكثر من ذلك من الألفاظ العربية ، لأنه كان يضع أمام اللفظ الفرنسي أحياناً أكثر من لفظ عربي . ومن الطبيعي أنه أوسع هذه الكتب مجالاً ، لأنه لم يقصر جهده على الألفاظ النباتية الخاصة .

ونمثل لطريقته في التناول بقوله : (١)

تُرمُس ‏ 1 Lupin (Lupinus)

(جنس نباتات زراعية من الفصيلة القرنية «القطانية» والقبيلة الفراشية ، فيه نوع يزرع لحبه ، وأنواع تزرع لزهرها . وذكر مايرهوف أن ترمس من اليونانية Thèrmos ، وأنها نقلت إلى القبطية والعبرية والآرامية ، ومنها إلى العربية والفارسية) .

ترمس شجـــري L. en arbre

(يزرع للتزيين وكذا الأنواع التالية عدا الجِرْجِر (L.arboreus)

أي الترمس الشـــائع) .

ترمس زراعي أو شـــائع . L.cultivé

جِرْجِر مصري . بَسـيلَة (L.têrmis)

(في المخصص : البسيل : الكريه ، وسمي البسيلة للمرارة التي فيه . وهو يزرع لحبه. وفيه ضروب يزرعها الأوربيون للكلأ) .

نخرج من هذه الجولة بأن اللغويين العرب تعرضوا للنبات في كتب خاصة به ، وفي أبواب من كتب عالجت النبات وغيره من الموضوعات التي تعرضت لهـــا الرسائل اللغوية ؛ وبأن الذين أفردوا النبات بالتأليف كان منهم من عالج نوعـــاً معيناً منه ، أو أخرج أكثر من كتاب جعل كلاً منها لنوع ، ومنهم من تناول عامة النبات .

---

(١) عن الطبعة الثانيـــة .

ونستطيع أن نعمم القول – في غير كبير خطأ – فنحكم بأن الذين خصوا النبات بأبواب من كتبهم ، لم يوفوه حقه ، فكانت أبوابهم ضئيلة قصيرة قليلة لا قيمة لها ، ما عدا المخصص لابن سيده .

ونستطيع أن نعمم القول أيضاً ، فنحكم بأن هؤلاء اللغويين كانوا يحاولون شيئاً من الترتيب الزمني خاصة ، عندما يتيسر لهم ذلك . فكانوا يفلحون – على تفاوت – في الجوانب التي فيها تدرُّج ، ولا سيما في وصفهم لدورة حياة النبات الذي يعالجونه . ولكن هذا الترتيب سرعان ما كان ينفرط من أيديهم ، ويختل عليهم . ووصل الأصمعي في كتاب النبات والشجر ، وابن خالويه ، إلى تقسيم محكم للشجر الذي عالجاه . وحاولا أن يلتزما هذا التقسيم ، فأفلحا كثيرًا ، واضطربا في أحايين . ثم التزم أبو حنيفة الترتيب على الحروف ، ولكنه كان ترتيباً ساذجاً قاصراً لا نظر فيه إلا للحرف . ونضج الترتيب عند الدكتور أحمد عيسى والأمير الشهابي ، ولكنه كان ترتيباً أجنبياً . وظهر لون من الترتيب عند صاحبي الإفصاح ، وخاصةً في طبع الكتاب .

واتجه كثير منهم إلى ما يشبه نظام القوائم ، فعل ذلك الأصمعي في كتاب النبات والشجر ، وأبو عبيد ، وابن خالويه ، والخطيب الإسكافي ، والربعي من القدماء ، وصاحبا الإفصاح والدكتور أحمد عيسى والأمير الشهابي من المحدثين . والأخير أعظمهم لزوماً لهذا النظام . وأتى هذا الشبه بالقوائم بسبب الاختصار الذي لجئوا إليه ، وقلة المادة عندهم ، وإيجازهم في وصف ما يصفون من نبات . أما أبو حنيفة – الذي رتب القسم الثاني من كتابه ترتيب القوائم – فقد بَعُد عنها بفضل المادة الغزيرة التي أوردها .

ويمكن القول بأن أكثر القدماء اتفقوا في علاجهم لموادهم على منهج يقوم على الإشارة إلى المفرد والجمع ، والمشتقات ، والإتيان بالشواهد . ولكنهم اختلفوا بعد ذلك كثيرًا . فقد التزم أبو حنيفة الخطوة الأولى ، وأكثر من الشواهد جدا . ولا يدانيه أحد في الأمرين ولكن أبا حاتم السجستاني انفرد عنهم

بالصبغة الدينية البارزة في الشواهد التي ذكرها في كتاب النخلة ، وانتزعها من القرآن والحديث .

واتفق الأصمعي وأبو عبيد وأبو حاتم وأبو حنيفة وابن خالويه في الإشـــارة إلى مواطن النبات الذي يصفونه ، غير أن أبا حنيفة كان أشدهم التزاماً لذلك كذلك اتفق الأصمعي وأبو حاتم وأبو حنيفة في التنبيه على اللهجات المختلفة ، وكان آخرهم ينبه على الضعيف والفصيح منها ، كما نبهوا إلى بعض المعـــرَّب . واتفق أبو حاتم وأبو حنيفة في الاعتماد على الأعراب والأخذ عنهم .

وأعتقد أن كل ذلك يؤدي بنـــا إلى تصديق القدماء حين يثنون على كتاب أبي حنيفة ، ويتحسَّرُون لضياع القسط الأكبر منه ، فهو أغزرها مادة ، وأغناها بالاستطرادات النافعة ، وأكثرها شـــواهد أدبية ، وأجمعها لخصائص الجودة . ولمـــا كان ابن سيده قد اعتمد كل الاعتماد على هذا الكتاب ، إلى جـــانب الزيادات النحوية والصرفية التي ينفرد بها المخصص ، فإني أعتقد أني على حـــق حين أجعل أبواب النبات فيه تالية في المرتبة لكتاب أبي حنيفة ، وإن فاتها حسن التنظيم ، ودقـــة التقسيم ، ممـــا نراه في أبواب أخرى في المخصص .

كُتبُ المَواضِع

(التراث الجغرافي اللغوي عِندَ العَربُ)

كان الشاعر العربي القديم ابن بيئته البارّ ، أقام فيهــا فأحبّها وأذابها في وجدانه . وانتقل عنها فلم ينسها ، ودأب على ذكرها والوقوف والاستيقاف عليها كلما مرّ بها . واتخذ منها ملهماً لأفكاره ، ومنبعاً لصوره ، وموضوعاً لوصفه . وتغنى بها — على قسوتها عليه أحياناً — فردد أسماء البقاع التي شاهدت فترات من حياته ، متتبعاً مستقصياً ، كما فعل الحارث بن حلِّزة ، حين قال في معلقتــه :

آذَنتْنــا ببَيْنِهــا أسمــاءُ ... رُبَّ ثــاوٍ يُمَلّ منــه الثواءُ

بعد عهدٍ لنا ببُرْقــهِ شَمّا ... ءَ فأدنــى ديارهــا الخلصاء

فالمحيــاة فالصِّفــاح فأعلى ... ذى فتــاقٍ فعــاذبٌ فالوفــاء

فرياض القطــا فأوديــة الشُّرْ ... بب فالشعبتــان فالأبــلاء

لا أرى من عهدت فيها فأبكى الْ ... يــومَ دَلْهاً وما يردُّ البكاء !

وكان ذلك الشاعر مخلصاً لبيئته ، يحب أن يعود إلى صورتها الكاملة بجميع أبعادها ، وأن ينقلها إلى من يتغنى لهم ومعهم بتلك الأبعاد ، فلم يضن عليهم بشيء يزيد صورتها تحدداً وكمالا . فعمــد زهير إلى رسم الطريق الذى سلكته محبوبته في رحلتها في وادى السوبان ، والجانب الذى مالت إليه منه ، إذ قال في معلقتــه :

ظهرْنَ من السُّوبان ثم جزَعْنه ... على كل قَيْنيّ قشيب ومُفأَمِ

ووَرّكن في السُّوبان يعلون متنه ... عليهــن دلُّ النــاعم المتنعِّم

وعمد امرؤ القيس إلى الموضع الذى يريد التحدث عنه ، فشفى كل نفس من تحديده حين قال :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة ، لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمأل

وعُرف امرؤ القيس خاصة بميله إلى تحديد مواقع البقاع التى يتحدث عنها ، وقدرته على ذلك ، حتى رويت في ذلك القصص التى — صحت أو لم تصح — لا تفقد دلالتها على اشتهار ذلك الجانب عند الشاعر .

حدث إسحاق بن إبراهيم الموصلى أنه أقبل قوم من اليمن يريدون النبي صلى الله عليه وسلم فضلّوا الطريق . ومكثوا ثلاثة أيام لا يجدون الماء . وجعل الرجل منهم يستروى بفيء السَّمُر والطَّلْح ، حتى أيسوا من الحياة ، إذ أقبل راكب على بعير له ، فأنشد بعضهم :

ولما رأت أن الشريعة همُّها   وأن البياض من فرائصها دامى

تيمّمت العين التى عند ضارج   يفىء عليها الظلّ ، عرمضُها طامى

فقال لهم الراكب — وقد علم ما هم عليه من الجهد — : « من يقول هذا ؟ » قالوا : « امرؤ القيس » . قال : « والله ، ما كذب ، هذا ضارج عندكم » . وأشار إليه . فإذا ماء عذب وعليه العرمض — الطحلب الذى على الماء — والظل يفىء عليه ، فشربوا منه ريهم ، وحملوا منه ما كفاهم (١) .

واتخذ ليَيَل(٢) Lyall من هذه الظاهرة دليلاً على صحة الشعر الجاهلى وصحة نسبته إلى قائليه .

وظهر اللغويون الذين عنوا بالشعر رواية ودراية ، وحاولوا تفسير جميع جوانب ذلك الشعر ليتضح أمام القراء الجدد الذين ما كانوا يعرفون مناسباته ، ولا كثيراً من ألفاظه وإشاراته ، لطول العهد بينهم وبين قائليه ، وللبعد بينهم وبين اللغة التى نظم بها .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ٣ /٤٦٠ .

(٢) مقدمة طبعته لديوان عبيد بن الأبرص ١٣ .

فكان من الجوانب التى عنوا بها البقاع المذكورة في الشعر ، فعاملوا أسماءها معاملتهم لغيرها من الألفاظ ، وبالطريقة التى عاملوه بها ، وفي ذلك الوقت المبكر الذى عنى اللغويون فيه بألفاظ الشعر .

وكان ذلك أمراً لغوياً ، يقوم به لغويون ، بهدف لغوى ، ومنهج لغوى . ولا يحس القائمون به أنهم يعالجون شيئاً بعيداً عن اللغـــة .

ولكن ذلك الميدان لم يبق طويلاً خالياً للغويين وحدهم ، بل ما أسرع ما وجدوا معهم جماعات تعالج تلك الأماكن . وغيرها من البقاع التى لم يسمع عنها اللغويون ، معالجة مختلفة اختلافاً كبيراً في الهدف والمنهج . فما كانوا يعنون بدراسة اللغة العربية ، بل كان بعضهم يعنى بدراسة الأخبار والأحداث العربية ويسمون أنفسهم الأخباريين والمؤرخين . وكان بعضهم الآخر يدرسون البقاع العربية وغيرها من أجل التعريف بها ، ويسمون أنفسهم الجغرافيين ، وأصحاب المسالك والممالك ، أو تقويم البلدان

وقد تنبه القدماء أنفسهم إلى المغايرة بين اللغويين والجماعة الأخيرة خاصة ، لأن المؤرخين عنوا بالمواضع كمقدمات لدراساتهم التاريخية . فلم تسلط الأضواء إلا على اللغويين والجغرافيين ، الذين اعتمـــد عليهم ياقوت في معجم بلدانه العظيم ، ونبّه في مقدمته إلى الفروق بين الفريقين حين قال(١) : « صنف المتقدمون في أسماء الأماكن كتباً وبهم اقتدينا وهى صنفان : منها ما قُصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة والبلدان المسكونة المشهورة ، ومنها ما قُصد به ذِكْر البوادى والقفار ، واقتصر على منازل العرب الواردة في أخبارهم والأشعار . فأما من قصد ذكر العمران فجماعة وافرة . منهم من القدمـــاء والفلاسفة والحكماء أفلاطن وفيثاغورس وبطليموس وغيرهم كثير من هذه الطبقة ، وسموا كتبهم في ذلك جغرافياً ... وقد وقفت لهم منها على تصانيف عدة جهلت أكثر الأماكن التى ذكرت فيها ، وأبهم علينا أمرها ، وعُدمت

(١) معجم البلدان ١ /٦ .

لتطاول الزمان فلا تعرف ، وطبقة أخرى إسلاميون سلكوا قريباً من طريقة أولئك من ذكر البلاد والممالك ، وعيّنوا مسافة الطرق والمسالك ، وهم ابن خرداذبه وأحمد بن واضح والجيهاني وابن الفقيه ... رأما الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية فطبقة أهل الأدب ، وهم أبو سعيد الأصمعي ، وأبو عبيد السكوني ، والحسن بن أحمد الهمداني ... وأبو الأشعث الكندي ... وأبو سعيد السيرافي ... وأبو محمد الأسود الغندجاني ... » .

وحديثي في هذا المقال قاصر على الذين سماهم ياقوت طبقة أهل الأدب ، أو الذين عالجوا أسماء الأماكن معالجة لغوية أدبيـــــة .

وأقدم من أعرف من هذه الطائفة خلف الأحمر ، المتوفى في حدود سنة ١٨٠هـ . فقد قيل أنه ألف كتاباً بعنوان «جبال العرب وما قيل فيها من الشعر(١)» وينافسه في التقـــــدم أبو الزرير عمر بن مطرف ، المتوفى في عهد الرشيد ١٧٠ — ١٩٣هـ(٢) . فقد نسب إليه كتاب « منازل العرب وحدودها ، وأين كانت محلة كل قوم ، وإلى أين انتقل منها(٣) » . والكتابان مفقودان ، ولم أعثر فيما رجعت إليه من كتب على نصوص يصرح أنها مقتبسة عنهمـــــا .

وينسب إلى أبي المنـــــذر هشام بن محمد الكلبي ، المتوفى في سنة ٢٠٤ ، عدة كتب من هذا النوع . ذكر ابن النديم(٤) منها البلدان الكبير ، والبلدان الصغير ، وقسمة الأرضين ، والأنهار ، ومنازل اليمن ، وأسواق العرب ، والأقاليم ، والحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العباديين ، وتسمية ما في شعر امرىء القيس من أسماء الرجال والنساء وأنسابهم ، وأسماء الأرضين والجبـــال والميـــاه .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ٥٠ . القفطي : إنباه الرواة ١ /٣٥٠ . السيوطي : بغية الوعاة ٢٤٢

(٢) وقيل : إنه مات في عهد المهدي ١٥٨ — ١٦٩ هـ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ١٢٧ . ياقوت : معجم الأدباء ١٦ /٧٢ .

(٤) الفهرست ٩٧ . وعنه ياقوت : معجم الأدباء ١٩ /٢٩١ .

وذكر ياقــوت(١) في قائمة المراجع التي اعتمد عليها في تأليف معجم البلدان ، أنه وقف لابن الكلبي على كتاب يدعى « اشتقاق البلدان » . وقد أكثر ياقــوت في معجمه ، وفي كتابه « المشترك وضعــا والمفترق صقعا » بل أبوعبيد البكرى فيمعجم ما استعجم أيضاً، من النقل الصريح عن ابن الكلبي . وأعلن الرجلان في بعض المواضع أسماء الكتب التي ينقلان عنها ، فلم يرد أي كتاب من الكتب السابقة من بينها . ولكن ورد اسم كتاب آخر لابن الكلبي ، يدعى « أنساب البلدان » ، في مواضع قليلة(٢) . وأظن أن هذا الكتاب هو الاشتقاق ، كما رجح كراتشكوفسكي(٣) .

وتدل النصوص التي اقتطفها ياقــوت من الأنساب أن ابن الكلبي حاول فيه أن يعلل أسماء الأماكن ويفسرها ، بإيراد بعض القصص الحقيقية والخرافية التي تروى في صدد ذلك ، وأنه لم يقصر جهده على الأماكن العربية ، بل تعداها إلى الفارسية ، وأمثال هذه النصوص التي تذهب هذا المذهب ، ورواهــــا ياقوت عن ابن الكلبي — دون أن يبين عنوان الكتاب الذى استقاها منه — كثير ، وفي خلدى أنها جميعاً مأخوذة من أنساب البلدان .

وأمثل لهذه النصوص بقوله(٤) في تفسير اسم جُرَش : « قرأت بخــط جُخْجَخ النحوى ، في كتاب أنساب البلدان لابن الكلبي : أخبرنا أحمد ابن أبي سهل الحلواني ، عن أبي أحمد محمد بن موسى بن حماد البريدى ، عن أبي السرى ، عن أبي المنذر قال : جرش : قبائل من أفناء الناس تجرشوا ، وكان الذى جرشهم رجل من حمير يقال له : زيد بن أسلم خرج بثور له عليه حملُ شعير ، في يوم شديد الحرّ . فشرد الثور ، فطلبه فاشتد تعبه ،

(١) معجم البلدان ١ /٧ .

(٢) معجم البلدان ٢ /٦٠ ، ٨٧٦ ، ٤ /٤٤١ وصرح باسم جخجخ الذى كان ينقل من نسخته للكتاب فى ٣ /٩١٤ ، ٤ /٥٧٢ .

(٣) ١٢٧ .

(٤) معجم البلدان ٢ /٦٠ .

فحلف لئن ظفر به ليذبحنّه، ثم ليجرشن ّالشعير، وليدعون ّعلى لحمه . فأدركه بذات القصص عند قلعة جرش، وكل من أجابه وأكل معه يومئذ كان جرشيّاً » .

وألف أبو عبيدة، المتوفى في ٢٠٨ هـ، كتاب الحرّات(١) ولم يورد البكرى ولا ياقوت شيئاً منه في حديثهما عن الحرّات .

وألف أبو زيد الأنصارى، المتوفى في ٢١٥ هـ، كتاب المياه(٢) . ولم أجد نصوصاً يصرح أنها مقتبسة منه . وغير بعيد أن يكون النص التالى مأخوذاً منه . قال ياقوت(٣) : « قال أبو زيد : تخرج من الحمى — حمى ضرية — فتسير ثلاثة ليال مستقبلاً مهب الجنوب من خارج الحمى، ثم ترد مياه الضباب، فمن مياههم الأرطاة » .

وألف الأصمعى، المتوفى في ٢١٦، كتب، مياه العرب، وجزيرة العرب، والدارات(٤) ولم يصرح ياقوت باسم الأول منها في مقتبساته، غير أنه أكثر من النقل من الثاني . وتدل هذه المقتبسات على أن الأصمعى رتب الكتاب وفقاً للأقاليم والقبائل، فكان يذكر بقاع إقليم إقليم، أو قبيلة قبيلة، مثل مياه نجد، ونواحى الطائف، ومنازل قيس بنجد، وديار الحجاز، وغيرها . وتدل أيضاً على أنه كان يحدد الأماكن بما جاورها، أو بإقليمها ومن يسكنها، وكان في بعضها يصل إلى تحديد جد دقيق . وكان عماده في أقواله على الشعر .

نمثل لذلك بقوله(٥) : « لبنى نصر بن معاوية بجانب ركبة بقعاء بين الحجاز وبين ركبة، وهى من أرض ركبة » ؛ ولعنايته بالشعر يقول ياقوت(٦) :

---

(١) ابن النديم : الفهرست ٥٤ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ٥٥ .

(٣) معجم البلدان ١ /٢٩٠ .

(٤) ابن النديم : الفهرست ٥٥ .

(٥) معجم البلدان ١ /٢٠١ .

(٦) معجم البلدان ١ /١٥٢ .

« أنشد الأصمعي —في كتاب جزيرة العرب — لرجل من طيىء ، يقال له الخليل ابن قردة — وكان له ابن واسمه زافر ، وكان قد مات بالشام في مدينة دمشق — فقـــال :

ولا آب ركبٌ من دمشق وأهله ولا حمص إذ لم يأت في الركب زافر

ولا من شبيث والأحص ومنتهى الـ ـمطايا بقنّسريـــن أو بخنـــاصر

ويعد كتاب الدارات للأصمعي أقدم كتاب وصل إلينا من هذه المجموعة . وقد نشره الآباء اليسوعيون في كتاب « البلغة في أصول اللغة » . واستهـــل الأصمعي كتابه الصغير بإحصاء الدارات في بلاد العرب ، فكانت عنده ١٦ دارة . ثم عرّف الدارة ، وأورد صيغ جموعها . ثم أخذ يسرد أسماءها دون ترتيب ، ويتحدث عن كل منها . ودأب في حديثه هذا على أن يورد الاسم ثم بيتاً أو بيتين من الشعر شاهدين عليه . ولم يبذل أية محاولة لتحديد مواقعها . أما شواهده الشعرية فنسب بعضها إلى قائلة ، وأهمل ذلك في غالبها .

قال في مفتتحه : « دارات العرب المعروفة في بلدانهم وأشعارهم ست عشرة دارة . والدارة : ما اتسع من الأرض ، وأحاطت به الجبـــال ، غلظ أو سهل ، يقال : دار ، ودارة ، وأدؤر ، ودارات . فمن ذلك دارة وشجى ، وأنشد :

ولستُ بناسٍ موقفاً إن وقفتـــه بدارة وشجى ما عَمِرتُ سليما

ودارة جُلْجُل ، قال إمرؤ القيس :

ألا رُبَّ يومٍ لك منهـــن صالحٍ ولا سيّما يومٍ بـــدارة جلجـــلِ

ودارة رفرف ، وأنشد :

فقلت : عِدى . قالت : إذا الليلَ جنّنا فموعدنا أقوازُ دارة رفـــرف »

وألف محمد بن خالد البرقي — من أصحاب محمد بن على الجواد المتوفى في

٢٢٠ هـ ــ كتاب البلدان(١) . ولم يشر إليه ياقـوت ولا البكـــــرى .

وألف أبو عثمـــان سعـــدان بن المبـــارك (المتوفى في ٢٢٠ هـ) ، كتاب الأرضين والمياه والجبال والبحار(٢) . ورأى ابن النديم قطعة منه بخط ابن الكـــوفي(٣) . ولكن ياقـــوتاً والبكـــــرى لم يذكراه .

وألف الحسن بن محبوب السراد (المتوفى في ٢٢٤ هـ) كتابي : الأرضين ، والبلدان (٤) . ولم يذكرهما ياقوت والبكـــــرى .

ونسب ابن النديم(٥) إلى أبي الحسن علي بن محمد المدائنى ، المؤرخ المشهور (المتوفى في ٢٢٥ هـ) كتاباً عن حمى المدينة وجبالها وأوديتها . ولكن كل ما نقله ياقوت عن المدائنى مواد تاريخية ، ما عـــدا ثلاثة نصوص ، تحدث في أحدها عن حدّ تهامة(٦) ، وفي ثانيها عن حدّ العراق(٧) ، وفي ثالثها عن وادي قناة(٨) . وربما أخذ هذه النصوص الثلاثة من بعض كتبه التاريخية الكثيرة ، وربما أخذ النص الثالث وحده من الكتاب المذكور .

وألف الجاحظ (المتوفى في ٢٥٥ هـ) كتاباً اختلفت المراجع في عنوانه . فسماه ابن حوقل (٩) وياقوت(١٠) « البلدان » ، وسمّاه الثعالبى (١١) «خصائص

---

(١) ابن النديم : الفهرست ٢٢١ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ٧١ . ابن الانبارى : نزهة الألباء ١٠٣ . السيوطى : البغية ٢٥٤ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ٧١ .

(٤) ابن النديم : الفهرست ٢٢١ .

(٥) الفهرست ١٠٣ .

(٦) ١/ ٩٠٢ .

(٧) ٣/ ٦٣٠ .

(٨) ياقوت : معجم البلدان ٤/ ١٨٢ . السمهودى : وفاء الوفا ٢/ ٢١٥ .

(٩) صورة الأرض ٣٧٢ .

(١٠) معجم البلدان ٢/ ٥٩٣ .

(١١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ٤٤٨ .

البلدان » ، وسماه المسعودي(١) « الأمصار وعجائب البلدان » وحاجي خليفة والثعالبي في موضع آخر من كتابه :(٢) « الأمصار » . وتحمل قطعة منه ، محفوظة بالمتحف البريطاني تحت رقم ١١٢٩ ، عنوان « الأوطان والبلدان(٣) »

وذكر المسعودي(٤) أن الجاحظ ادعى في هـذا الكتاب أن منبع نهري مهران بالسند والنيل بمصر واحد ، واستدل على ذلك باتفاق زيادتهما ، وكون التماسيح فيهما ، وأن طرق الزراعة في البلدين واحدة ؛ ثم رد عليه .

ونقل ياقوت(٥) منه نصاً يدل على أن الجاحظ تناول فيه بعض الآثار الجميلة ، ذات الشهرة الكبيرة ، بالوصف . قال ياقوت : « حكى الجاحظ في كتاب البلدان قال : قال بعض السلف : ما يجوز أن يكون أحد أشد شوقاً إلى الجنة من أهل دمشق ، لما يرونه من حسن مسجدهم . وهو مبنى على الأعمدة الرخام طبقتين ، الطبقة التحتانية أعمدة كبار ، والتي فوقها صغار ، في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء الذهب والأخضر والأصفر . وفي قبليه القبة المعروفة بقبة النسر ، ليس في دمشق شيء أعلى ولا أبهى منظراً منها . ولها ثلاث منائر : إحداها — وهي الكبرى — كانت ديدبانا للروم ، وأقرّت على ما كانت عليه ، وصيرت منارة » .

وتبين النصوص المنسوبة إلى الجاحظ — وإن لم يصرح باسم الكتاب المأخوذة منه — أنه كان يرصد الظواهر الطبيعية والبشرية ، ويعدها من فضائل البلدان

---

(١) التنبيه والاشراف ٥٥ . ومروج الذهب ١ /٩٩ .

(٢) كشف الظنون ٢ /١٣٩٨ . ثمار القلوب ٤١١ .

(٣) Rieu, Supplément No. 1129.

(٤) التنبيه ٥٥ ، ومروج الذهب ١ /٩٩ .

(٥) معجم البلدان ٢ /٥٩٣ .

التي تقع بها أو من عيوبها ، أي من خصائصها . فقد نقل عنه ياقوت(١) ما يتعلق بالمد والجزر وتغير الطقس في البصرة ، وكراهية المطر في مصر ؛ والمقدسي(٢) ما يتعلق بخصائص بغداد والكوفة والبصرة والفسطاط وغيرها . وتبين أيضاً أنه لم يقتصر على الأقاليم العربية ، بل تناول غيرها أيضاً مثل الري ونيسابور ومرو وبلخ وسمرقند وغيرها(٣) ؛

وأثنى كثيرون على كتاب الجاحظ ، قال ابن حوقل(٤) : « كتاب نفيس ». واتهم المقدسي(٥) ابن الفقيه بسرقة كتاب الجاحظ ، على الرغم من سوء رأيه فيه ؛ إذ قال(٦) : « وأما الجاحظ وابن خرداذبه ، فإن كتابيهما مختصران جداً لا يحصل منهما كثير فائدة » . كذلك عابه البيروني ، ووسم صاحبه بالبساطة والسطحية .

وذكر ياقوت في معجم الأدباء أن شمر بن حمدويه الهروي (المتوفى في ٢٥٥ هـ) ألف كتاب الجبال والأودية(٧) ، ولكنه لم يذكره في مقدمة معجم البلدان . وبالرغم من ذلك عزا إليه ، هو وأبو عبيد البكري ، كثيراً من الأقوال . وكلها — على وجه التقريب — تفسيرات لغوية واشتقاقية . فلا أدري يقيناً : هل أخذاها من هذا الكتاب أو غيره ؟ وربما كان الاستثناء

---

(١) معجم البلدان ١/٦٤٧ ، ٦٥١ ، ٤/٥٥٢ .

(٢) أحسن التقاسيم ٣٣ .

(٣) نفس الموضع .

(٤) صورة الأرض ٣٧٢ .

(٥) أحسن التقاسيم ٢٤١ .

(٦) أحسن التقاسيم ٤ .

(٧) ١١/٢٧٥ .

الوحيد من الحكم السابق ما نقله ياقوت عنه (١) في (عناب) ففيها : « قال شمر : عُناب : جبل في طريق مكة . قال المرار :

جعلن يمينهن رعان حبس   وأعرض عن شمائلها العُناب »

وبالرغم من ذلك لا أستطيع أن أؤكد أنه من كتابه المذكور .

ونسب ياقوت في معجم الأدباء إلى أبي عبدالله أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل، نديم المتوكل ، المتوفي نحو ٢٥٥ هـ ، كتاب أسماء الجبال والمياه والأودية (٢). ولا ذكر له في معجم البلدان ولا في معجم البكري .

وفي عهد المتوكل أيضاً ، كان يعيش محمد بن إدريس بن أبي حفصة ، الذى وقف ياقوت (٣) على كتاب له سماه « مناهل العرب » ، كما تدل المقتبسات على أنه عاد إلى كتابه الآخر اليمامة . ولا يفرق ياقوت بين ما يقتبسه من كل من الكتابين ، ولكننا قد نطمئن إلى أن كل ما يتصل باليمامة من الكتاب الثاني ، و ما عداه يحتمل أن يكون من الكتاب الأول . فإذا كان الأمر كذلك ،نستطيع أن نقول : إن المؤلف وصف في كتابه الأول المواقع على الطريق بين البصرة ومكة (٤) ، وحجر والبصرة (٥) ، وربما الطريق بين اليمامة ومكة (٦) ، ووصف كثيراً من الأماكن بالبحرين ، ونجد ، وهجر (٧) .

قال ياقوت (٨) : « قال الحفصي : إذا خرجت من البصرة تريد مكة ، فتأخذ بطن فلج ، فأول ماء ترد الحفير . قال بعضهم :

ولقد ذهبتُ مراغماً   أرجو السلامة بالحُفَير
فرجعت منه سالماً   ومع السلامة كل خير»

---

(١) ٧٣٢/٣ .
(٢) ٢٠٤/٢ .
(٣) معجم البلدان ١ /٧ .
(٤) ٢٩٧/٢ ، ٣٤٧ .
(٥) ٨٥٦ .
(٦) ٣٥٠/٢ .
(٧) ٩٤١/١ ، ٣٥٤/٢ ، ٨٨٦/٣ ، ٨٩٤/٤ .
(٨) ٢٩٧/٢ .

وتحدث في كتاب اليمامة عن القرى ، والمياه ، والجبال ، والوديان ، والرياض ، والأماكن . بل عدّه ياقوت أحسن من كتب عن اليمامة ، فجعله مصدره الرئيس فيها . ولعله نقل الكتاب برُمّتِه في معجمه . قال ياقوت (١) : « قال محمد بن إدريس بن أبي حفصة : أُثيفية : قرية وأكيمات ، وإنما شبهت بأثافي القدر ، لأنها ثلاث أكيمات . وبها كان جرير . وبها له مال . وبها منزل عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير . . . »

وقال ياقوت في حديثه عن الأجرعين (٢) : « علم لموضع باليمامة . عن محمد بن إدريس ابن أبي حفصة ، هكذا حكاه مبتدئاً به » . ولعل هذا القول يعني أن الحفصي بدأ كتابه بالأجرعين . وربما كان لنا الحق أن نستنبط أنه رتب مواضعه على الألفباء ، ولكنه في الحرف الأول وحده ، لأنه قدّم الأجرعين على أثيفية . ولكن بعض أقوال ياقوت الأخرى تجعلنا نعتقد أن الكتاب لم يكن مرتباً على الألفباء . قال (٣) : « قال الحفصي : ذو سدير : قرية لبني العنبر ». وقال في موضع آخر من كتابه : « بظاهر السِّخال واد يقال له : ذو سُدير ». وربما لم يكن ذلك النص صريح الدلالة على عدم الترتيب ، لأنه من الجائز أن يكون أورد « ذو سدير » الثانية عرضاً ، في أثناء حديثه عن السخال . ولكن ياقوتاً قال أيضاً (٤) : « ذكر الحفصي مسافة ما بين اليمامة والدهناء ثم قال : وأول جبل بالدهناء يقال له : الوحيد ، وهو ماء من مياه بني عقيل يقارب بلاد بني الحارث بن كعب » ، مما قد نستنبط منه أنه راعى التسلسل الجغرافي .

وكان الحفصي يذكر إقليم المكان الذي يتحدث عنه أو يحدد أبعاده عما جاوره من بقاع مشهورة ، أو يصرح بالقبائل التي تسكنه ، أو أكثر من أمر

---

(١) ١/١٢١ .

(٢) ١/١٣٤ .

(٣) ٣/٦١ .

(٤) ٤/٩٠٨ . وانظر ٣/٨٧٢ .

من هذه الأمور . ولكنه في كتاب اليمامة اقتصر في كثير من البقاع على أنها من اليمامة ، ولم يحاول لها تحديداً .

ومن الطبيعي أن يضطر الزبير بن بكار المتوفي في ٢٥٦ هـ ، في كتبه التاريخية المتعددة إلى التعرض للأماكن الواردة في تضاعيف أخباره . ولكن ابن الفقيه الهمداني قال (١): « وفي العقيق وقصوره وأوديته وحِراره أخبار كثيرة ، وللزبير بن بكار فيه كتاب مفرد » . وأكد ذلك ياقوت في معجم البلدان(٢) والسمهودى في وفاء الوفا (٣) .

وتدل النصوص التى نقلها ياقوت ، والبكرى ، والسمهودى ، من هذا الكتاب ، أن المؤلف تناول فيه أودية العقيق ، وغدرانه ، وسيوله ، وما إليها، وأكثر فيه من الأخبار والأشعار . قال ياقوت (٤) : « ذكر الزبير في كتاب العقيق بالمدينة : هو مَرَخ وذو مرخ وأنشد لأبي وجزة يقول :

واحتلّت الجوَّ فالأجراع من مرخ   فما لها من مُلاحاة ولا طلب »

وراعى في الأماكن التى ذكرها تسلسلها الجغرافي . قال السمهودى (٥) : « قال (الزبير) : وأعلى غُدُر مسيلات العقيق التى في درج الوادى مما يلى الحرة موكلان ، من أعلى ذى العش . ثم غدير سليم . ثم ذو التحاميم . ثم الأعوج . ثم غدير الجبال . ثم يماحم . ثم غدير الذباب . ثم غدير الحمير . . . » . ولكننا يجب ألا نستنتج من هذه النصوص وأمثالها عند السمهودى أن الزبير كان يدون قوائم مجردة بهذه البقاع ، فقد أثبت الدكتور صالح أحمد العلى (٦) أن السمهودى كان يلخص نقوله ، بحذف ما فيها من أشعار .

---

(١) البلدان ٢٦ .

(٢) ٢/٨٥٠ ، ٤/٤٩٢ ، ٦٧٣ ، ٧٨٠ .

(٣) ٢/٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٩ .

(٤) ٤/٤٩٢ .

(٥) ٢/٢١١ .

(٦) المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز ٢٠ .

ونسب ابن النديم (١) الى أحمد بن محمد البرقي ، المتوفي في ٢٧٤ هـ ، كتاب البلدان ، وصرّح أنه كان أكبر من كتاب أبيه السالف الذكر . وبالرغم من أن ياقوتاً ترجم له في معجمي الأدباء (٢) والبلدان (٣) لم يذكر هـذا الكتاب ، ولا رجع إليه هو أو البكرى .

وألف أبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى ، المتوفي في ٢٧٥ هـ ، كتـاب المناهل والقرى (٤) ، الذى صرح ابن النديم أنه رآه بخطه (٥) . والنقول التى يعزوها ياقوت الى السكرى كثيرة . ولكننا لا نستطيع أن ننسب شيئاً منها الى هذا الكتاب ، على وجه اليقين . بل صرح ياقوت نفسه بأسماء كتب أخـرى للسكرى ، نقل منها ، مثل روايته شعر جرير (٦) . أما كتاب المناهل والقرى فلم يذكره لا في الكتاب ولا في المقدمة . وأكثر ما نقله ياقوت أسماء أماكـن أوردها في صدد شرحه للشعر ، واكثرها من بقاع شبه الجزيرة العربية ، ولكن قليلا منها في مصر (٧) .

وألف عرّام بن الأصبغ السُّلمي المتوفى نحو ٢٧٥ هـ كتاب « أسماء جبـال تهامة ، وسكانها ، وما فيها من القرى ، وما ينبت عليها من الأشجار ، وما فيها من المياه(٨) » . ووصلت إلينا نسخة منه ، من رواية أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي ، عن أبي محمد عبيد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن السكرى ، عن ابن أبي سـعد الوراق ، عن أبي الأشعث عبد الرحمن بن محمد ، عن المؤلف . وقام بتحقيقها وطبعها الأستاذ عبد السلام محمد هارون . وعليها اعتمد في الوصف . وكان بين

---

(١) ٢٢١ .
(٢) ٤/ ١٣٢ .
(٣) ١/ ٥٧٥ .
(٤) القفطـى : انباه الرواة ١/ ٢٩٢ . السيوطى : البغيـة ٢١٩ .
(٥) ٧٨ .
(٦) ١/ ٨٤٦ . وانظر ١/ ١١٧ ، ٢٦٧ ، ٥٨٨ .
(٧) ١/ ٢٦٩ .
(٨) نوادر المخطوطات – الجزء ٨ – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٥ م .

يدي أبي عبيد البكري نسخة أخرى ، من رواية أبي عبيد الله عمرو بن بشر السكّوني ، عن أبي الأشعث ، عن عرام ، أتكلم عنها بعد .

ينقسم الكتاب الى قسمين ، يشغل أولهما نحو ثلثيه ؛ والثاني الثلث الباقي . ويعالج المؤلف في القسم الأول تهامة . ويبدؤها بتحديد ما رأى أنه الحد الشمالي لها ، وهو جبل رضوى . قال(١) : « أولها (رضوى) من ينبع على يوم ، ومن المدينة على سبع مراحل ميامنةً طريق المدينة ، ومياسرةً طريق البريراء لمن كان مصعداً الى مكة ، وعلى ليلتين من البحر . . . » . وعندما ينتهي المؤلف من وصف منطقة رضوى ، يبدأ بالمدينة ، ثم يقوم بما يشبه الرحلة الى مكة . فاذا ما بلغها قفز الى منطقة الطائف .

وكان هدفه من هذه الرحلة وصف ما يقابله من جبال . ويتضح من الكتاب وعنوانه أنه كان في كل جبل يعني بتحديد موقعه ، ووصف شكله ونباته ، وحيوانه ، ومياهه ، ووديانه ، وقراه ومدنه ، وإبانة سكانه .

فكان يحدد الموقع بإبانة أبعاده عما حوله ، وموضعه من الطرق المارة به ، كما يبين من النصوص السابقة ، ومن تكملته الآتية : « وبحذائها (عَزْوَر) وبينه وبين رضوى طريق المعرقة تختصره العرب الى الشام ، والى مكة ، والى المدينة ، بين الجبلين قدر شوط فرس . وهما جبلان شاهقان منيعان لا يرومهما أحد . نباتهما الشوحط والقرظ والرّنف — وهو شجر يشبه الضّهياء » .

وكان يذكر قائمة بالنباتات التي تظهر في البقعة التي يتحدث عنها ، ويخشى ألا تعرف بعضها ، فيحاول تعريفها بذكر مرادفها ، أو شبيهها من النباتات ، أو بوصف شكلها ، ومنفعتها ، وثمرتها ، وطعمها ، ورائحتها . قال عن جبلي

---

(١) ص ٣٩٦ .

ثافل الاكبر والأصغر (١) : « نباتهما العرعر ، والقرظ والظيان ، والأيدع ، والبشام . وللظيان ساق غليظة . وهو شاكٌ – أي غليظ الشوك – ويحتطب . وله سنفة كسنفة العشرق. والسنفة : ما تدلى من الثمر وخرج عن أغصانه . والعشرق : ورقٌ يشبه الحندقوقا منتنة الريح . والأيدع : شجر يشبه الدُّلب ، إلا أن أغصانه أشدُّ تقاربا من أغصان الدُّلب ، لها وردة حمراء ليست تجد طيب الريح ، وليس لها ثمر . . . » .

وكان في وصفه للمياه يبين قدرها ، ومنبعها ، وطعمها ، وفي الأودية يبين مصابّها . قال (٢) : « وفي ثافل الأكبر عدّة آبارٍ في بطن واد يقال له (يَرْثَد) . يقال للآبار (الدباب) . وهو ماء عذب كثير غير منزوف ، أناشيط قدر قامةٍ قامة . وفي ثافل الأصغر ماءٌ في دوّار في جوفه يقال له (القاحة) وهما بئران عذبتان غزيرتان » .

وكان في حديثه عن القرى والمدن يبين قدرها ، وسكانها ، ومياهها ، وفي حديثه عن السكان يذكر القبائل التي تحل بالموضع ، وحالتها المالية ، وما تقوم به من أعمال (٣) . قال : « ثم أسفلَ منها (مَهايع) وهي قرية كبيرة غنّاء ، بها ناس كثير ، وبها منبر ، ووالي ساية من قِبَل صاحب المدينة ، وفيها نخل ومزارع وموز ورمان وعنب . وأصلها لولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فيها من أفناء الناس ، وتجار من كل بلد ، ثم خَيْف يقال له : (خيف سلّام) . . . فيه منبر وناس كثير من خزاعة . ومياهها فُقُرٌ أيضاً ، وباديتها قليلة ، هي جُشَمُ وخزاعة وهذيل » .

وعالج المؤلف في القسم الثاني الحجاز ، وأراد أن يسير فيه على النهج الذي سار عليه في القسم السابق . ولكن المادة العلمية التي كانت لديه عنه قليلة ، ولذلك اضطر إلى الإجمال والإخلال في حديثه ، فظهر البون واضحاً بين

(١) ٣٩٩ .
(٢) ٤٠١ .
(٣) ٤١٤ .

القسمين . قال (١) : « ثم (الطَّــرف) لمن أمَّ المدينة ، يكتنفه ثلاثة جبــال : أحدها (ظَلَيم) وهو جبل أسود شامخ لا ينبت شيئــًا ، و (حزْمُ بني عُوال) وهما جميعاً لغطفان . وفي عوال آبار منها (بئر ألْية) اسم ألية الشاة ، و (بئر هرمة) و (بئر عُـمير) و (بئر السِّدرة) وليس بهؤلاء ماءٌ ينتفع به » .

ثم ألف أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري ، المتوفى في ٢٨٢ هـ ، كتــاب البلدان ، الذي وصفه ابن النديم والقفطي بالكبر (٢) . وكل النقول التي عثرت عليها من كتابه الآخر ، كتاب النبات ، الذي يعد أعظم ما خلفه القدماء من الكتب التي تصف نباتاتهم .

وتقتني مكتبة شيخ الاسلام بالمدينة كتاباً ، منسوباً إلى أبي علي الحسن بن عبد الله المعروف بلغدة ، معاصر الدينوري ، عالج فيه الأماكن العربية . وتقتني عدة مكتبات عامة وخاصة في بغداد نسخاً منه ، نُقلت عن المخطوط المدني ، غير أنها جميعــًا لا تذكر عنوان الكتاب ، ولمــا كان من ترجم للغدة لا يذكر له كتاباً من هذا النوع ، بقي عنوان الكتاب مجهولاً منا ، وإن حاول بعضهم أن يضع له من عنده عنواناً اعتماداً على مادته ، فسماه « صفة جزيرة العرب » أو « قبائل العرب ومياهها وجبالها (٣) » .

واتخذ المؤلف من القبائل أساســًا لبحثه ، فكان يتناول الميــاه والجبال التي تحل بها بطون قبيلة ما ، إلى أن يفرغ منها ، فينتقل إلى غيرها . فهذه مواضع

---

(١) ٤٢٤ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ٧٨ . القفطى ١ /٤١ . ابن الانبارى : النزهــة ١٦٥ .

(٣) مكتبة الاوقاف ٦٢١٦ . وعليها اعتمد فى الوصف والاشارة . ومكتبة المتحف العراقى ٢٢٧ ، ١١٠٠ ، وانظر المقال القيم الذى نشره الاستاذ محمد رضا الشبيبى بعنوان : أقدم مخطوط وصل الينا عن بلاد العرب ، ص ٣٩ — ٤٥ من مجلة المجمع العلمى العراقى — (الجزء الأول من السنة الأولى — ايلول ١٩٥٠ .)

بني عقيل ، فمواضع بني فهم وعدْوان، فبني أسد، فبني غني... الخ قال، (١) : « ومنزل بني ربيعة الجزيرة . ولبني عامر بن عقيل بن ربيعة الجوفاء ، وهي لمعاوية وعوف ابني ربيعة . وغُضَى لعامر بن ربيعة جميعاً ، ما خلا بني البكّاء . ولهم بريم ، وهم شركاء جُشَم فيه . قال الراجز :

تذكّرتْ مشربها من تُصلبا ومن بريم قَصَبا مثقّبا

وتصلب لبني إنسان من بني جشم ... فهذه مياههم الأعداد التي يجتمع عليها ، ولهم مياه سوى هذه ربما نزحت . ولهم من الجبال : حَضَن لجشم خاصة . والسود لهم أيضاً . ولهم هَوْلى ، والقامة . قال الأصمعي : بسّ وبسيان ورهوة في أرض بني جشم ونصر ابني معاوية بن بكر بن هوازن » .

وعندما ينتهي المؤلف من هذا السرد يصف ثلاثة طرق تخرج من حجر اليمامة ، أولها إلى البصرة ، وثانيها إلى الكوفة ، وثالثها إلى مكة . قال(٢) : « واذا خرجت من حجر تريد الكوفة ، فأول ماء ترده يقال له: الُحبل — وهو في ناحية القُفّ ، وهو ماء لراعية اليمامة ، وبينه وبين حجر نحو من خمسة فراسخ . ثم تخرج منه فترد القف ، وهي أرض خشنة ظاهرة ، حتى تأخذ بين بنيان والعرض ، تدع بنيان يميناً والعرض يساراً . ثم تمضي حتى ترد البالدية ، بالدية بني غُبَر ، وهي قرية فيها نخيل ومزارع ، وبين البالدية وحجر ليلتان ... » .

وفي أواخر الكتاب حديث عن المعادن المطمورة في باطن شبه الجزيرة العربية : نجدها وحجازها ، حيث ذكر الذهب والفضة والنحاس ، وغيرها . قال مثلاً(٣) : « الكوكبة من وراء الغيصان ، على مسيرة يوم وليلة ، وهي على رأس جبل ، كان منقوباً فيه باب ، وإنما سميت الكوكبة لأن رجلاً مرّ فإذا هو بفضة شبه الكوكب . فحفروها فانشعبوا فيها حتى كان يدخل فيها نحو من مئة رجل من مدخل واحد فينشعب كل واحد منهم في معمل لايراه صاحبه ، وهو لنمير » .

---

(١) ٢ . (٢) ٤٢ . (٣) ٤٩ .

واعتمد المؤلف في مادة كتابه على سكان البقاع التى يتحدث عنها ، وخاصة العامرى الذى أخذ منه قسطاً كبيراً من كتابه . ولذلك جاء وصفه دقيقاً محكماً ، وخاصة لمنطقة اليمامة .

ونقل السمهودى كثيراً من نصوصه عن كتاب لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأسدى(١) ، من أهل القرن الثالث ، غير أنه لم يذكر اسمه . وتبين هذه النصوص أن الكتاب كان عن المدينة ومنطقتها ، اهتم بالمساجد التى صلى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، والطرق التى تتفرع من المدينة إلى مكة ، والكوفة ، والبصرة . فسجل أبعادها بالأميال ، والبُرُد، وعنى بالمياه والآبار والسكان .

قال السمهودى(٢) : « قال الأسدى في وصف طريق العراق : إنه (أى الطّرف) على خمسة وعشرين ميلاً من المدينة ، وعلى عشرين ميلاً من بطن نخل . وذكر فيه آباراً وبركاً » .

ونسب ابن النديم(٣) إلى أبي الأشعث عزيز بن الفضل الهذلى كتاب : « صفات الجبال والأودية وأسمائها بمكة وما والاها » . وقد ذكر المرزباني في معجم الشعراء عزيزاً ، وقال عنه(٤) : « محدث معتمدى » أى أنه من الشعراء الذين اتصلوا بالخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩) . ولكننى لم أعثر عند البكرى أو ياقوت على نقول معزوّة إليه .

ولما طبع كتاب عرام بن الأصبغ السالف الذكر ، أثار كثيراً من المشاكل . فقد نقل البكرى منه كثيراً من النصوص ، رواية عن أبي عبيد السكوني ، عن أبي الأشعث عنه . ونقل ياقوت كثيراً منه عن أبي الأشعث . وتبين من

---

(١) ٢/١٦٤ .
(٢) ٢/٣٣٩ .
(٣) ١١٤ .
(٤) ١٧٣ .

مقارنة النقول والكتاب المطبوع أن أبا الأشعث عبدالرحمن بن محمد الكندى كان مجرد راوية أمين لكتاب عرّام . أما أبو عبيدالله عمرو بن بشر السكوني فلم يكتف بالرواية . فكثير من النصوص التى نقلها البكرى عنه غير موجودة في كتاب عرام المطبوع ، بل تختلف عن منهجـــه أيضاً . إذ يقيم علاجـــه للأماكن على وصف رحلات يقوم بها الإنسان من مدينة معروفة إلى المنطقة التى يريدها ، ويصف كل ما يقابله في هذه الرحلة ، وكثيراً ما كان هذا الإنسان هو المُصدِّق ، أى آخذ الصدقات والزكاة من القبائل . وقد ذكر البكرى عدة رحلات من هذا النوع .

فاستنتج من ذلك الأستاذ عبدالسلام هارون أن « كتاب السكوني في جبال تهامة هو رواية حرة لكتاب عرّام اعتمدت على التعليقات الكثيرة ، والإضافات الاستطرادية(١) » أو « أن السكوني جعل الكتاب أساسه في الرواية ، ولكنه زاد عليه كثيراً من التعليقات والإضافات ، شأن كثـــير من رواة الـــكتب الأقدمين(٢) » . ولكن الدكتور صالح أحمد العلى درس هذه النصوص ، فتبين له أن كثيراً منها موجودة في وفاء الوفا للسمهودى ، مروية عن أبي علي الهجرى ، الذى لا يمكن الا أن يكون غير السكوني(٣) . وصار الأمر مشكلة تحتاج إلى مواد جديدة ليتيسر الاهتداء إلى وجه الصواب فيها .

ونسب ياقوت في مقدمة معجم البلدان(٤) كتاباً لأبي عبيد السكوني لم يصرح باسمه ، ونقل عنه في المعجم ٦٠ نصاً ، درسها الدكتور صالح أحمد العـــلي(٥) ، ووجد أنها تتصل بطريق حاج واسط ، والكوفة ، والبصرة ، ومناطق من الشام وجبلى طيِّيء . وتبين من هذا أن السكوني تناول في كتابه

---

(١) ٣٧٢ .
(٢) ٣٧٦ .
(٣) ٣٢ ، ٣٦ .
(٤) ١ /٧ .
(٥) المؤلفات العربية عن المدينة والحجـــاز ٢٨ – ٤٢ .

جغرافية الجزيرة كلها ، وأنه اهتم بطرق المواصلات ، والأبعاد بين الأماكن ، وحددها بالأميال ، وبالأماكن القريبة من محاطّ الطرق الرئيسة ، والآبار وأعماقها والسكان وعشائرهم ، وأنه من أدق وأشمل من وصف جزيرة العـــرب عامـــة .

قال ياقوت(١) : « قال أبو عبيد السكوني : خفّان : من وراء النسوخ على ميلين أو ثلاثة ، عَيْن ، عليها قرية لولد عيسى بن موسى الهاشمى ، تعرف بخفان . وهما قريتان من قرى السواد ، من طَفّ الحجاز . فمن خرج منها يريد واسطاً في الطف ، خرج إلى نجران ، ثم إلى عبدينيا وجُنْبلاء ثم قناطر بنى دارا وتل فخّار ، ثم إلى واسط » .

ولكننا يجب أن نفرق بين هذا السكوني ، وأبي عبيد عمرو بن بشر السكوني الذى نقل عنه أبو عبيد البكرى كتاب عرّام . فانى أعتقد أن هذا السكوني هو أبو عبدالله (أو أبو عبيدالله) أحمد بن الحسن السكوني ، الذى ترجم لــه ياقوت في معجم البلــدان(٢) ، وكان مختصــاً بالمكتفى (٣٣٣ ــ ٣٣٤) والمقتدر (٣٣٤ ــ ٣٦٣) ، وألف كتاباً في اسماء مياه العرب ، صرح ياقوت انه رأى نسخة غير تامـــة منه ونقلها .

وعدّ ياقوت(٣) كتاب « صفة جزيرة العرب » لأبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني ، المتوفي في ٣٣٤ هـ ، من هذا النوع من الكتب . وبالرغم أني لا أوافقه كل الموافقة ، أدون وصفاً سريعاً ومختصراً للكتاب ، ليتضح منهجه ، وما بينه وبين الكتب التى أتحدث عنها من مشابه وفروق .

صدّر الهمداني كتابه بعدة فصول جغرافية خالصة أو تكاد . فتحدث عن الجزيرة العربية ، باعتبارها أفضل البلاد المعمورة ، فأبان حدودها ومسافاتها ؛

(١) ٢/ ٤٥٦ .
(٢) ٣/ ٩ .
(٣) ١/ ٧ .

ثم تحدث عن تقسيم بطلميوس الأرض إلى أقاليم ، ودوائر ، وخطوط الطول والعرض ، وما ذكره بطلميوس عن طبائع أهل العمران . وختم بإبانة خطوط طول مدن العرب المشهورة وعرضها .

ثم بدأ الكتاب الحق بالأمور التي يعنى بالحديث عنها، وهي(١) : « مساكن هذه الجزيرة ومسالكها ومياهها وجبالها ومراعيها وأوديتها ونسبة كل موضع منها إلى سكانه ومالكه على حد الاختصار ، وعلى كم تجزأ هذه الجزيرة من جزء بلدى ، وفرق عملي ، وصقع سلطاني ، وجانب فلَكوى ، وحيّز بدوى ».

ثم استهل حـــديثه بأولاد نزار ، وتفرقهم ، وسبب تسميتهـــا بالجزيرة ، وأقسامها . وبدأ باليمن موطنه ، فأفاض فيه ، وعالج منه كل شيء ؛ وما بقى من الكتاب — وهو قليل — وزّعه على بقية أنحاء الجزيرة . وكان يتحدث عن الأماكن حسب تسلسلها الجغرافي ، ويفيض في الحديث عن النواحي البشرية ، وأكثر من الشعر في آخر الكتاب خاصة . ويعدّ كتاب الهمداني أكبر الكتب التي تناولت الجزيرة العربية ، وأهم الكتب عن اليمن .

قال(٤) : « ومن أخذ الجادّة من مكة إلى معدن النقرة ، فمن مكة إلى البستان تسعة وعشرون ميلاً . وعرض البستان أحد وعشرون جزءا وربعاً . ومنه إلى ذات عرق أربعة وعشرون ميلاً . وعرض ذات عرق أحد وعشرون جزءاً وثلثا جزء . ومنها إلى الغمرة عشرون ميلاً . وعرض الغمرة اثنـــان وعشرون جزءاً ... » .

ونسب ابن النديم(٣) إلى أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خـــلاد الرامهرمزى المتوفى نحو ٣٦٠ هـ « كتاب المناهـــل والأعطان والحنـــين إلى الأوطان » . ويبـــدو أنه لم يقع لياقوت ولا للبكـــــرى .

---

(١) ٤٦ .
(٢) ١٨٥ .
(٣) الفهرست ١٥٥ .

وذكر ياقوت في مقدمة معجم البلدان(١) عن أبي سعيد الحسن بن عبدالله السيرافي المتوفى في ٣٦٨ هـ : « بلغني أن له كتاباً في جزيرة العرب » . ولكنه نسبه إليه دون تحرز في المعجم ، ونقل نصاً عنه ، قال في صدد حديثه عن أجياد(٢) : « قال أبو سعيد السيرافي في كتاب جزيرة العرب من تأليفه : هو موضع خروج دابة الأرض » . وما نسبه ياقوت إلى السيرافي من النصوص قليل جداً ، لا نستطيع أن نستخلص منه معالم لكتابه .

وألف الحسين بن محمد الرافقي الخالع ، المتوفى في ٣٨٨ هـ ، كتاب « الأودية والجبال والرمال(٣) » . ونسب إليه ياقوت(٤) ثلاثة نصوص ، كلها تتحدث عن الرياض . مثال ذلك قوله : « روضة الحَدّاد : كذا وجدته في كتاب الخالع : بالحاء ، وعندى أنه الجُدّاد ، بالجيم والضم ، والجداد : صغار الطلح . قال : الحداد : واد عظيم . قال إياس بن الأرَتّ :

حيٌّ الجميع بروضة الحَدّاد من كل ذى كرم يزين النادى »

وألف أحمد بن فارس الرازى ، المتوفى في ٣٩٥ هـ ، كتاب « دارات العرب(٥) » . وقد أشار إليه ياقوت في مطلع حديثه عن الدارات ، قال(٦) : « وهى نيف على ستين دارة ، استخرجتها من كتب العلماء المتقنة ، وأشعار العرب المحكمة ، وأفواه المشايخ الثقات . واستدللت عليها بالأشعار حسب جهدى وطاقتى ، والله الموفق . ولم أر أحداً من الأئمة القدماء زاد على العشرين دارة ؛ إلا ما كان من أبي الحسين بن فارس ، فإنه أفرد له (؟)

---

(١) ١ /٧ .
(٢) ١ /١٣٨ .
(٣) ١٠ /١٥٥ . السيوطى : البغية ٢٣٥ . وانظر التنوخى : مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ١٥ /١٥٨ .
(٤) معجم البلدان ٢ /٨٤٧ ، ٨٥٦ ، ٤ /٤٧٥ .
(٥) ابن الأنبارى : نزهة الألباء ٢٢٠ .
(٦) ٢ : ٥٢٦ .

كتاباً ، فذكر نحو الأربعين . فزدت أنا عليه بحول الله وقوته نحوها » . ونقل ياقوت عن ابن فارس في بعض المواضع ، ولكن أرجح أنها كلها مأخوذة من أماليـــــه(١) .

ومن أهل القرن الخامس ، ألف أبو محمد الحسن بن أحمد الأسود الأعرابي الغندجاني ، الذى كان حيـاً في ٤٢٨ هـ ، كتابي « أسمـاء الأماكن(٢) » و« مياه العرب » . وأشار ياقوت إلى ثانيهما بين الكتب التى رجع إليها عند تأليف معجم البلدان(٣) . والنقول التى يعزوها إليه كثيرة ومتنوعة ، غير أنه لم يصرح باسم الكتاب الذى ينقل عنه . فهو يتحدث عن المياه كثيراً (٤) ، ولكنه يتحدث عن غير المياه أيضاً(٥) ، بل ينقل عنه أشعاراً فقط(٦) ، كما ينقل عنه أخباراً واساطير عربية (٧) .

وفي القرن الخامس أيضاً ، ألف أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكـــرى الأندلسى ، المتوفى في ٤٨٧ هـ ، كتاب « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع » . وحدد المؤلف موضوعه في صدر مقدمته ، حين قال(٨) : « هذا كتاب ذكرت فيه – إن شاء الله – جملة ما ورد في الحديث والأخبار ، والتواريخ والأشعار ، من المنازل والديار ، والقرى والامصار ، والجبال والآثار ، والمياه والآبار ، والدارات والحرار » . فالبكرى إذن يعنى بكل ما ورد اسمه في الحديث والأخبار والشعر من الأماكن .

ورمى بذلك إلى هدف لغوى ، جلاه في قوله (٩) : « فإني لما رأيت ذلك

---

(١) ١ : ٤٠٥ .

(٢) السيوطى : البغيــة ٢١٧ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ١ /٧ .

(٤) نفس المرجـــع ١/٣٦٤ ، ٢٩٥ ، ٣ : ٦٠٢ وغيرهـــا .

(٥) ١ /٦٠ ، ٣/٣٩١ ، ٤١٤ ، ٦٢١ وغيرهـــا .

(٦) ١ /٨٠٠ ، ٩٣٣ ، ٢/٢٦٤ ، ٣/٢٧٣ ، ٧١٤ ، ٤/٦٩١ وغيرهـــا .

(٧) ١/١٢٧ ، ١٣٠ ، ٤٠٦ ، ٢/٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣/٤١٤ ، ٦٠٩ ، ٨٦٤ وغيرهـــا .

(٨) ١ .

(٩) ١ .

قد استعجم على الناس ، أردت أن أفصح عنه ، بأن أذكر كل موضع مبين البناء ، معجم الحروف ، حتى لا يدرك فيه لبس ولا تحريف » .

ورتب المؤلف كتابه وفقاً للحروف العربية ، ولكن على نظامها عند المغاربة ، وهو يتفق مع ترتيبنا المشرقي إلى الزاى ، ثم يختلف على النحو التالى : ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و ي . واعتمد في ترتيب المواضع على الحرفين الأولين ، وأهمل ما بعدهما من حروف . وإذا كان الحرف الثاني ألفا زائدة أهملها واعتبر الحرف الذى بعدها . وقد طبع الكتاب في جوتنجن ، على يد المستشرق فستنفلد ، على هذا الترتيب . ثم أعاد طبعه الاستاذ مصطفى السقا في القاهرة ، بعد أن غير ترتيبه وفقاً للألفباء المشرقية ، التى أخضع لها حروف الكلمة كلها ، غير مقتصر على حرفين فقط .

ونهج المؤلف في كتابته عن المواضع أن يضبط الحروف بالعبارة ، ثم يحددها ، مع نسبة كل قول إلى قائله من اللغويين والإخباريين المشهورين(١) . وقد أوضح استاذى مصطفى السقا هذا النهج في قوله(٢) : « يعوّل المؤلف في الضبط على الشعر العربي أولا ، فيأتي بالشعر الذى ورد فيه اسم المكان ، ويُسنده إلى الراوى الذى نقله من العلماء ، ويوازن بين الروايات ، ويرجح رواية الثقات ، ويعتمد في ذلك على النسخ الفَذّة ، التى كتبها العلماء أنفسهم بأيديهم ، أو التى كتبها ورّاقوهم المعروفون ، أو تلاميذهم المبرزون ، وقرءوها عليهم ... وكان يعتمد في الحديث على روايات الكتب الصحاح ، وخاصة الموطأ ، والبخارى ، وسنن أبي داود ، وينقل كثيراً من الأحاديث عن ابن وهب وابن القاسم من شيوخ المالكية . وينقل عن ابن اسحاق صاحب السيرة ، وعن أبي جعفر الطبرى . ويصحح ما وقع في كتب أولئك وهؤلاء من تحريف في أعلام البلدان » . وأضيف إلى ذلك ما نقله من المعاجم اللغوية ، وخاصة من جمهرة ابن دريد .

وأمثل لمنهجه بقوله(٣) : « البان — على وزن افعال ، كأنه جمع لَبَن :

---

(١) ١ ، ٤ .   (٢) د .   (٣) ١/ ١٨٦ .

موضع في ديار بنى هُذَيل . قال أبو حاتم : هو جبل أسود في ديار بنى مُرّة ابن عوف ، قال : أبو قلابة :

يا دار أعرفُها وَحْشـا منازلها بين القـوائم من رَهْط فألْبان
فدِمنةٍ فرُخَيّـاتِ الأحَتّ إلى ضَوْجَيْ دفاق كسحق الملبس الفاني

هذه كلها مواضع متقاربة . والقوائم : جبال منتصبة هنالك . قال تأبط شراً :

هَلاّ سألت عُمَيراً عن مصاولتى قوماً منـازلهم بالصيف ألبانُ »

وصدّر البكرى كتابه بمقدمة طويلة ، في ٩٠ صفحة ، عالج فيها أقسام بلاد العـرب المختلفة ، وتفرّق القبائل ورحلاتها فيها . وهى مقدمـة عظيمة الأهمية من الناحية الجغرافية والتاريخية .

ويؤخذ عليه أنه لم يحدد كثيراً من مواضعه ، أو أعطاه تحديداً غير دقيق ، وانه أحال في كثير منها إلى مواضع أخرى ، بل مواضع جاءت عرضاً في بعض الرسوم الأخرى . ولكنه مرجع لاغناء عنه لكل من يشتغل بالتاريخ العربي القديم والجغرافيا والشعر الجاهلي(١) .

وفي القرن السادس ، ألف أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ، المتوفى في ٥٣٨ هـ ، كتاب « الجبال والأمكنة والمياه » . وحاول أن يرتب القسط الأكبر منه . فاعتمد في ذلك على الحرف الأصلى الأول وحـده ، واهمـل بقية الحروف . ولكنه اضطرب في الأسماء المكونة من مضاف ومضاف إليه ، فاعتبر الصدر أحياناً ، كما في أبي قبيس ، وأم خنور ، وأم خرمان ، وام موسل ، وام اوعال ، التى وضعها في باب ما أوله همزة ؛ وبرقة شماء ، وبستان ابن عامر ، وبطن مر ، وبطن اللوى ، وبقيع الغرْقد ، وبقاع الكلب ، وبئر بضاعة ، وبيت جبريل ، وبرقة الروحان ، وبيت رأس ، وبئر أبي عنبة ، وبئر معونة ، وبرك الغماد ، التى وضعها في باب ما أوله باء . واعتبر

(١) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العـربى ٢٢٨ .

العجز أحياناً ، كما في معدن الأحسن ، وسوق حباشة ، وأبرق الحنان ، التي وضعها في باب ما أوله حاء ؛ ورمل مخفق ، وجبل خليج ، التي وضعها في باب ما أوله الخاء ؛ وجبل رنقاء ، ومرج راهط ، اللذين وضعهما في باب ما أوله راء .

ثم ألحق به أربعة فصول تعالج الطريق بين ينبع ومكة . فجعل الفصل الأول منها لأسماء الجبال الكبيرة ، والثاني للجبال الصغيرة ، والثالث للأودية والرابع للمياه .

ولم يراع الزمخشري في هذه الفصول الأخيرة ترتيباً ما — فيما يبدو . ولم يتعد منهجه فيها إعطاء قوائم بأسمائها ، ولم يعن بتحديدها أو وصفها أو إيراد شواهد شعرية عليها إلا نادراً كل الندرة . مثال ذلك قوله في الفصل الاول (١) : « شعران ، ويمنى ، وبضيع ، والعناب ، وسيبان ... وسراوع . وأنشد الجحوش الخفاجي :

نظرت — ومن دوني تهامة كلها   وحمر الذرا معرورف من سراوع »

أما الكتاب نفسه ، فقد ترك فيه كثيراً من البقاع دون تحديد ، ولجأ في بعضها إلى تحديدها بما يجاورها ، أو بأسماء من يسكنها من قبائل ، أو بالاقليم الذى تقع فيه ، أو بأكثر من واحد من الأمور السابقة ، مع بيان المسافة بينها وبين بعض البقاع الأخرى المشهورة في أحيان أخرى ، ووصفها في أحايين بذكر نباتها ، أو ارتفاع جبالها وألوانها . وقد علل بعض الأسماء ، وأورد في ذلك بعض الخرافات ، وكان ذلك قليلاً جداً . واستشهد بأشعار نسب بعضها إلى قائليه ، وأهمل بعضها الآخر . وتظهر على الكتاب خصائص المختصرات .

وأمثل له بقوله (٢) : « الدثينة والدفينه : منزل لبنى سليم . الدخول :

---

(١) ١٥٥ .
(٢) ٥٤ .

موضع . وذبل : بئر نميرة كثيرة الماء . دارة الجثوم : لبني الأضبط بن كلاب — والجثوم : ماء لهم يصدر في دارة بيضاء . دارة غبير : لبني الأضبط بها ماء يسمى الغبير . الدهناء : موضع في بلاد بني تميم . درني : موضع .. قال الأعشى :

حلّ أهلي ما بين درني فبادو   لى ، وحلت علوية بالسخال »

وصرح ياقوت(١) أنه رأى كتاباً لأبي الحسن علي بن محمد العمراني الخوارزمي ، المتوفى نحو ٥٦٠ هـ ، وأن مؤلفه وقف على كتاب شيخه الزمخشري وزاد عليه . وعبارة ياقوت موهمة . فقد وسع العمراني مجال دراسته ، فشمل العالم الإسلامي كله ، من خوارزم شرقاً إلى المغرب غرباً ، بل تعرض لبعض البلدان غير الإسلامية مثل القلمونيين ، وقَرار ، وقُنُوة ، ومجذونية ، من بلاد الروم ، وواضح ان اكثرها غير مشهور ، مما قد يدل على انه حاول ان يتحدث عن بلاد الروم كلها . وواضح من نقول ياقوت عنه كثرة المواضع غير العربية التي تعرض لها .

ورتب العمراني كتابه « المواضع والبلدان » على الألفباء ، ولكنه لم يقتصر على الحرف الأول كأستاذه . فقد ذكر ياقوت(٢) : « قال أبو الحسن الخوارزمي : عيقة : موضع ذكره في هذا الباب من العين مع الياء » . فدل على أنه راعى الحرفين الأولين على الأقل . وذكر ياقوت(٣) أن العمراني وضع « قلهاث » بالثاء بعد قلهات بالتاء ، مما قد نستنتج منه أنه راعى حروف الكلمة كلها . ولكن ذلك غير ضروري ، لأنه — فيما يبدو — كان يضع المواضع المتشابهة في الخط ، فيخاف عليها اللبس والتحريف ، في موضع واحد، مما يؤيد قول ابن خلكان إن عنوان الكتاب(٤) : « ما اتفق لفظه وافترق

---

(١) معجم البلدان ١/ ٧ .
(٢) ٣/ ٧٥٣ .
(٣) ٤/ ١٦٨ .
(٤) ٣/ ٤٢١ .

معناه في الأماكن والبلدان المشتبهة الخط » . ويبدو انه في داخل كل فصل لم يراع الترتيب فقد قدم قلهات بالتاء على الثائية مرة ، ولكنه قدم قراش بالشين على قراس ، في فصلهما(١) .

واختلف العمـــراني مع أستاذه في ضبط بعض الأماكن . ففد ضبـــط الزمخشري حقال(٢) بكسر الحاء وتخفيف القاف ، وضبطه هو بفتح الحاء وتشديد القاف ؛ وقال ياقوت(٣) : « قال العمراني : مَرْبَخ — بفتح الميم والباء : رمل من رمال زرود ، وعن جار الله بضم الميم وكسر البـــاء » .

وحاول العمـــــراني أن يحدد مواقع المواضع التى تحدث عنها ، فأفلح في بعضها ، ولم يفلح في بعضها الآخر ، وخاصة البعيدة عن موطنه وعن الجزيرة العربية ، فاكتفى في كثير منها أو أكثرها بأنها مواضع ، أو مواضع بمصر ، أو المغرب ، أو بلاد الروم ، أو ما شاكل ذلك .

قال (٤) : « الأعيان ، بالنون : موضع ، في قول عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعى :

تروّحنا من الأعيـــان عصـــراً فأعجلْنــــا الإلاهـــة أن تؤوبا

هكذا رواه أبو الحسن العمراني . ورواه الأزهرى : « تروحنا من اللعباء » .

وقال(٥) : « رَزْبِيط ... مدينة بالمغرب ، عن العمـــراني » .

ويبدو أن ياقوتاً كان سيِّىء الظن بالعمراني ، فشك في كثير من مواده(٦) ،

(١) ٤/ ٤٧ .
(٢) ٢/ ٢٩٨ .
(٣) ٤/ ٤٨٣ .
(٤) ١/ ٣١٧ .
(٥) ٢/ ٧٧٥ .
(٦) ٣/ ١٠٨ ، ٣٤٤ ، ٤٥٨ ، ٢٧٤ وغيرهـــا .

وعدل عن ضبطه(١) ، وحكم عليه بالتصحيف في الضبط والحروف(٢) ، ولم يرض عن تحديده لبعض المواقع(٣) ، ورماها بالخطأ(٤) . ثم اتهم العمراني بسوء الفهم ، حتى اعتقد أن مَهْرة أرض وهى قبيلة(٥) ، وأن حليمة المذكورة في المثل « ما يوم حليمة بسر » موضع وهى امرأة(٦) ، وأن ريا التى ذكرها جرير موضع وهى امرأة(٧) .

وألف أبو الفتح نصر بن عبدالرحمن الفزارى الإسكندرى (٨) ، المتوفى في ٥٦٠ ه ، كتاب « أسماء البلدان والأمكنة والجبال والمياه » الذى أعجب به ياقوت كثيراً واتخذ منه أحد العمد الرئيسة التى رفع عليها معجمه ، بحيث رأى محققه أن من العبث فهرسة المواضع التى ذكر فيها نصر .

ومن العسير – في مثل هذه الحالة التى التحمت فيها مادة نصر بمادة ياقوت – أن نتبين خصائص منهجية لنصر . ولكن الواضح أن نصراً كان ميالاً إلى الدقة في تحديد المواضع التى يذكرها ، وكان يحددها بذكر ما يجاورها او إقليمها أو قطرها ، أو ساكنيها من القبائل ، أو أكثر من واحد من لأمور السابقة . وحاول أن يصف ما يحتاج إلى وصف من الأماكن ، واعتمد على الشعر والحديث في استخلاص مادته . ولا نعدو الحق حين نظن أنه كان مرتباً على الألفباء ، لأن الكتب التى اختصرته أو اعتمدت عليه كانت كذلك

---

(١) ٢/ ٧٣٩ ، ٧٧١ ، ٩٢٠ وغيرها .

(٢) ٢/ ٤٦٩ ، ٩٥١ ، ٣/ ١٠٨ ، ١٥٦ ، ٢٤٥ ، ٦١٢ وغيرها .

(٣) ٢/ ٤٤١ .

(٤) ٢/ ٥٧١ .

(٥) ٤/ ٧٠٠ .

(٦) ٢/ ٣٢٥ ، وانظر ٣ : ١٢٥ .

(٧) ٢/ ٨٨١ .

(٨) ياقوت : معجم البلدان ١ / ٨ . وانظر حديث كراتشكوفسكى عن المخطوطة المحفوظة بالمتحف البريطاني منه ، ٣٢٢ – ٣٢٣ .

قال نصر : الأُدَواء — بضم الهمزة وفتح الدال : موضع في ديار تميم بنجد(١) ... أديم — أيضاً : عند وادي القرى من ديار عـُذْرة، كانت لهم بها وقعة مع بنى مرة ؛ عن نصر(٢) ... ثَـهْمَد : جبل أحمر فارد ، من أخيلة الحمى ، حوله أبارق كثيرة في ديار غنىّ(٣) .

وألف محمد بن أبي القاسم بن بايحوك البقالى ، المتوفى في ٥٦٢ هـ ، كتاب « منازل العرب ومياهها(٤) » ولكننى لم أعثر على مقتبسات منه تهدينى إلى حقيقته ، ومنهجه ، وقيمته .

ولم يكن ياقوت وحده المعجب بكتاب أبي الفتح نصر الإسكندرى، بل أعجب به أكثر من جاء بعده من المؤلفين . فاختصره أبو موسى محمد بن عمر المدينى الأصفهاني ، المتوفى في ٥٨١ هـ ، في كتابه « ما اختلف وائتلف من أسماء البقـــاع (٥) » .

وقد وقف ياقوت على الكتاب ومدحه ، قال(٦) : « تأليف رجل ضابط ، قد أنفد في تحصيله عمراً ، وأحسن فيه عيناً وأثراً » . وقد تعرض فيه للأماكن العربية ، وغير العربية ، واتسم تحديده مواقعه بالدقة . قال(٧) : « المضيّح : جبل بنجد على شط وادى الجريب من ديار ربيعة بن الأضبط بن كلاب ، كان معقلا في الجاهلية ، في رأسه متحصّن ومـــاء » .

وذكر في المواضع التى تحدث عنها من ينسب إليها من العلماء . ويبدو أن هذا من زياداته على أبي الفتح الإسكندري ، لأن أكثرها منسوب إليه في

---

(١) ١/١٧٠ .
(٢) ١/١٧١ .
(٣) ١/٩٤٢ .
(٤) السيوطى : البغيـــة ٩٢ .
(٥) ياقوت : معجم البلدان ١/٨ .
(٦) ١/٨ .
(٧) ٤/٥٦٠ .

معجم ياقوت . فإن كان الأمر كذلك ، كانت تلك الظاهرة تتجلى في هذا الكتاب للمرة الأولى ، وإن كانت غير فذة ،لأنها كانت منتشرة في كتب الأنساب والأعلام ، لمعرفـــة الألقاب .

كذلك اتخذ أبو بكر محمد بن موسى الحازمي ، المتوفى في ٥٨٤ هـ ، كتاب أبي الفتح الإسكندري أساساً لكتابه المسمى « ما اتفق لفظه واختلف مسماه من الأمكنة المنسوب إليها نفر من الرواة ، والمواضع التى ذكرت في مغازي رسول الله » أو « المؤتلف والمختلف في أسماء البلدان » ، حتى قال عنـــــه ياقوت(١) : « وجدت الحازمي — رحمه الله — قد اختلسه وادعاه واستجهل الرواة فرواه » . ويبدو أن ياقوتاً كان حاقداً على الرجل ، قال : « ولقد كنت عند وقوفي على كتابه أرفع قدره عن علمه ، وأرى أن مرماه يقصد عن سهمه ، إلى أن كشف الله خبيئته ، وتمحّض المحض عن زبدته » . ولذلك لم يرجع إليه إلا مرات قلائل نتبين منها أن الرجل كان يرد على المديني أحياناً(٢) ، وكان يذكر المنسوبين إلى المواضع التى يتحدث عنها(٣)

ثم بلغ هذا الفرع اللغوى الجغرافي القمة ، حين ألّف أبو عبدالله ياقوت ابن عبدالله الحموى الرومى(٥٧٤ — ٦٢٦) كتابه « معجم البلدان » ، الذى قام بطبعه المستشرق فردنند فستنفلد في ليبسك عام ١٨٦٦م في أربعة أجزاء كبار ، وآخرين للفهارس والتعليقات ، ثم طبع في القاهرة في ٨ أجزاء، بدون فهارس ولا تعليقات في سنة ١٩٠٦ م ، ثم في بيروت حديثاً .

وكان المؤلف يرمى فيه إلى ما رمى إليه البكرى قبله ، أعنى تخليص أسماء الأماكن من التصحيف ، لأهميتها عند أهل العلـــوم المختلفة .

(١) ١/٨ .

(٢) ٢ : ٥٧٦ .

(٣) ١ : ٢٥٦ ، ٢ : ٤٩٤ .

أما مادة الكتاب ، فهى — تبعاً لقول المؤلف في مقدمتـــه — : « أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان ، والقرى والمحالّ والأوطان ، والبحار والأنهار والغدران ، والأصنام والأبداد والأوثان » .

ولم يقصر بحثه على بلاد العرب أو الخلافة الإسلامية ، بل تعدّاها إلى العالم القديم الذى عرفه المسلمون . واستمد هذه المادة من كتب المؤلفين السابقين في البقاع ، ومن كتب الأدب والحديث ، أو كما قال في مقدمته — بعد أن ذكر بعض كتب البقاع — : « وهذه الكتب المدونة في هذا الباب التى نقلت منها . ثم نقلت من دواوين العرب والمحدّثين ، وتواريخ أهل الأدب والمحدّثين ، ومن أفواه الرواة وتفاريق الكتب . وما شاهدته في أسفارى وحصّلته في تطوافي أضعاف ذلك » .

ورتب الأسماء وفقاً لحروفها كلها : أصلية ومزيدة ، للمرة الأولى في هذا النوع . قال : « فأقسمه ثمانية وعشرين كتاباً على عدد حروف المعجم . ثم أقسم كل كتاب إلى ثمانية وعشرين باباً للحرف التالى للأول . وألتزم ترتيب كل كلمة منه على أول الحرف وثانيه وثالثه ورابعه وإلى أى غاية بلغ . فأقدم ما يجب تقديمه بحكم ترتيب أ ب ت ث على صورته الموضوعة له ، من غير نظر إلى أصول الكلمة وزوائدها ، لأن جميع ما يرد إنما هى أعلام لمسميات مفردة ، وأكثرها عجمية ومرتجلة لامساغ للاشتقاق فيها » .

ووصف ياقوت منهجه في الحديث عن الأماكن التى تكلم عنها ، فقال : « فاستخرتُ الله تعالى وجمعت ما شتتوه ، وأضفت إليه ما أهملوه ... ووضعته وضع أهل اللغة المحكم ، وأبنت عن كل حرف من الاسم : هل هو ساكن أو مفتوح أو مضموم أو مكسور ، وأزلت عنه عوارض الشُّبَه ... ثم أذكر اشتقاقه إن كان عربياً ، ومعناه إن أحطت به علماً إن كان عجمياً ؛ وفي أى إقليم هو ، وأى شيء طالعه ، وما المستولى عليه من الكواكب ، ومن بناه ، وأى بلد من المشهورات يجاوره ، وكم المسافة بينه وبين ما يقاربه ،

وبماذا اختص من الخصائص ، وما ذكر فيه من العجائب ، وبعض من دُفن فيه من الأعيان والصالحين والصحابة والتابعين (والمنسوبين إليه) ، ونبذاً مما قيل فيه من الأشعار في الحنين إلى الأوطان ، والشاهدة على صحة ضبطه والإتقان ، وفي أي زمان فتحه المسلمون وكيفية ذلك ، ومن كان أميره وهل فتحه صلحاً أو عنوة ، لتعرف حكمه في الفيء والجزية ، ومن ملكه في أيامنا هذه . على أنه ليس هذا الاشتراط بمطاوعٍ لنا في جميع ما نورده ، ولا ممكن في قدرة أحد غيرنا ، وإنما يجيء على هذا البلدان المشهورة والأمهات المعمورة ، وربما ذُكر بعض هذه الشروط دون بعض على حسب ما أدانا إليه الاجتهاد .... واستقصيت لك الفوائد جلها أو كلها ... حتى لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول ... لبعدها عن العادات المألوفة ، وتنافرها عن المشاهدات المعـــــروفة » .

وإذن فالكتاب يتأثر باللغويين في ترتيب الأسماء ، وضبطها ، وإبانـــة اشتقاق العــــربي منها ، ومعنى الأعجمـــي ، وفي تحديد أبعاد الأمـــاكن بما جاورها من البقاع المشهورة ، والاستشهاد بالشعر على الضبط والتحديد . ويتأثر بالجغرافيين في إبانة أقاليم المواضع ، وخطوط طولها وعرضهـــــا ؛ وبالفلكيين في الكشف عن طالع كل منها تبعاً للكوكب المستولي عليه . ويأخذ من التاريخ تاريخ المدن ، والمنسوبين إليها ، وفتح المسلمين لها ، وأميرها في عصر ياقوت . ويستمد من المأثورات الشعبية كثيراً من القصص والأخبار ، المتعلقة ببناء هذه المدن ، وخصائصها وعجائبها .

وصدر ياقوت كتابه بمقدمة جغرافية طويلة ، اشتملت على خمســـة أبواب ، عالج فيها صورة الأرض ، وتقسيمها إلى أقاليم ، ومعاني المصطلحات الكثيرة الدوران في الكتاب وحكم البلاد التي فتحهـــا الإسلام في الفيء والخراج ، وجملا من أخبار بعض البلدان . وكلها أمور لا تدخل في نطـــاق بحثنـــا هذا .

وقد وصف كراتشكوفسكي أهمية معجم ياقوت ، فقال(١) : « هو أوسع وأهم ، بل وأكاد أقول أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عـــربي للعصور الوسطى . ولتكوين فكرة عن حجمه يكفى أن نذكر أن المتن المطبوع يضم ٣٨٩٤ صفحة . وهو جماع للجغرافيا في صورها الفلكية والوصفيـــة واللغوية وللرحلات أيضاً ، كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية إلى جانب الدين والحضارة والاثنولوجيا (علم الأجناس والفصائل البشرية) والأدب الشعبي وذلك في القرون الستة الأولى للهجرة . ويقرب عدد الشواهد الشعريـــة وحدها فيه — وذلك بين صغيرها وكبيرها — من الخمسة الآلاف » .

واستخرج ياقوت من معجمه كتاباً مختصرًا باسم (المشترك وضعا والمفترق صقعا » . حذف منه كثيرًا من الإطالات الجغرافية والأخبارية ، فاقترب به من كتب اللغـــة ، وجعله في مجلد واحد .

ووصل إلينا مصنف آخـــر يختصر معجم ياقوت تحت اسم « مراصدالاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع » واختُلف في صاحبه ، فنسبه بعضهم إلى ياقوت ، ويبدو أنه خدعهم ما أعلنه ياقوت في مقدمة المعجم عمن طلبوا إليه اختصاره . ونسبه بعضهم إلى صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحكم (المتوفى في ٧٣٩) وبعضهم الآخر إلى السيوطي (المتوفى في ٩١١) .

ونختم بالإشارة إلى كتاب «المتفق وضعا والمختلف صقعا» لأبي طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي صاحب القاموس المحيط(٢) (٧٢٩ — ٨١٧) ، ولم يصل إلينـــا .

وصفوة القول أن هذه الكتب جميعاً كانت تهتم بالاسم أكثر من المسمى ، باعتبار الاسم من المـــادة اللغوية التي تعالجها في الشئون الأخرى ؛ واعتمدت على

---

(١) ٣٣٥ .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ١٠ /٨٢ . الشوكاني : البدر الطالع ٢ /٢٨٢ . السيوطـــي : البغيـــة ١١٨ .

الشعر والأخبار العربية في استخلاص هذه الأماكن وتحديد مواقعها ، كما يعتمد عليه اللغويون في تفسير ما يريدون تفسيره من ألفاظ ؛ وأقامت تحديدها للمواقع على ذكر الأماكن المجاورة وأبعادها عنها بالمراحل والأيام ، ثم الأميال والبرد .

واختلفت بعد ذلك . فكان الأصمعي (في جزيرة العرب) والبكرى والإسكندري وعرام والسكوني وياقوت أقرب من غيرهم إلى الدقة في تحديد المواضع التي يتحدثون عنها ، وكان أكثرهم دقة عرام والإسكندري وياقوت وأتت الدقة إلى عرام والسكوني من وصفهم رحلات يقوم بها المسافر ، وما يمر به من مواضع على التوالي . أما الدقة فتعتمد عند ياقوت على معلوماته الجغرافية البحتة ، حتى كان يحدد المواقع بخطوط الطول والعرض .

وتوسع البكري وياقوت في الشواهد التي استخلصوا منها أماكنهم . فاعتمد البكري على الأحاديث النبوية والأخبار العربية إلى جانب الشعر . واعتمد ياقوت على ذلك كله ، وأضاف إليه كثيراً من الكتب التاريخية والجغرافية وغيرها .

وكانت الجزيرة العربية وما تاخمها من أقطار عربية هي موضع دراسة المؤلفين الأولين . ولم يشذ عنهم غير الجاحظ الذي تناول بلادا غير عربية . وبقى الأمر كذلك حتى القرن السادس ، فوسع المؤلفون مجالهم وتناولوا المدن الإسلامية الأخرى ، ثم توسع ياقوت إلى بقية أنحاء العالم القديم .

واختلفوا في ترتيب الكتب . فسار الأولون كما كانوا يسيرون في الرسائل للغوية الصغيرة ذات الموضوعات الواحدة ، مثل كتب الإبل ، والخيل ، وغيرها . فلم يرتب بعضهم كتابه ، مثل الأصمعي في داراته . ولكنه رتب جزيرة العرب وفقاً للأقاليم والقبائل التي تحلها ، وقسم عرّام كتابه قسمين : واحداً لتهامة ، والآخر للحجاز ، واتبع في الوصف مايمر به المسافر بين المدينة ومكة من أماكن على التوالي . ثم ابتدأ الترتيب الألفبائي قاصراً على حرفين في المغرب العربي عند أبي عبيد البكري ، وعلى حرف واحد في المشرق عند الزمخشري ، ثم على حرفين عند العمراني ، إلى أن بلغ كماله عند ياقوت الذي راعى حروف الكلمة كلها : أصلية كانت أو مزيدة .

واتفق البكري وياقوت على ضبط الأسماء بالعبارة ، وإبانة حقيقة حروفها ؛ والحركات عليها ، والإشارة إلى اشتقاقها ، خشية أن يلحقها التحريف ، الذى كان السبب الذي دفعهما إلى تأليف معجميهما .

ثم اتجه كل منهم اتجاهاً خاصًا في المواد التي عنى بها في كتابه . فاهتم ابن الكلبي بتفسير أسماء البلاد وتعليلها ، وإيراد الخرافات المتصـــلة بذلك . وعنى أبو نصر الإسكندري ، وأبو موسى الأصفهاني ، وأبو بكر الحازمي بذكـــر العلماء المنسوبين إلى المواضع التي يعالجونها . أما ياقوت فضم كل هذه الألوان ــ إذ أدخل هذه الكتب في معجمه ــ وأضاف إليها الأخبار التاريخية الكثيرة .

كل هذا جعل من معجم البلدان لياقوت القِمّة التي وصل إليها هذا اللون من التأليف والكتاب الذي يجمع كل اتجاهاته ، ويمثل كل الألوان ، ويضيف إليها ما أدخله من اتجاهات تاريخية وجغرافية . فقد مزج صاحبه فيه جميع ألوان الثقافة الإسلامية المتصـــلة به .

وقد تنبه أصحاب المعاجم اللغوية إلى هذا النهر منذ المعجم الأول . فأخـــذ الخليل بن أحمد في « العَيْن » منه بحظ يسير ، تعدى به شبه الجزيرة العربية إلى غيرها . ثم عَبّ منه ابن دريد في جمهرته . ووسّع الصغاني في عبابه مجاله . ثم حوّله الفيروزآبادي وضمه إلى الأنهار الأخرى التي صبها في قاموسه المحيط ، ثم شارحه السيد مرتضى الزبيدي . وتقوم الدعوة الآن إلى نفي هذا النهر عن محيط المعاجم ، إذ تعتبره دخيلا على المجال اللغوي البحت .

وأفاد أصحاب هذه الكتب بدورهم من المعاجم . فاستقى أبو عبيد البكري كثيراً من رسومه من جمهرة ابن دريد . وأكثر ياقوت من الرجوع إليه وإلى الأزهري والجوهري وغيرهم ، فتبادل كل من الفريقين التأثر والتأثير .

كُتُبُ الفُرُوق اللغوية

أول من نُسب إليه كتاب من هذا الصنف محمد بن المستنير قطرب (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) . وقد عثر الدكتور رودلف جاير على مخطوط به خروم كثيرة ، يحتوى على كتاب لقطرب بعنوان « ما خالف فيه الإنسان البهيمة في أسماء الوحوش وصفاتها » . وهو — دون شك — كتاب الفَرْق .

وتناول قطرب في هذا الكتاب الفروق في ثلاثة أمور فقط : أسماء الحيوان وأولاده — وجماعاته — وأصواته .

وصنَّف أنواع الحيوان التى بحث الفروق فيها إلى الأصناف التالية : الحمير ، شاء الوحش ، ذوات البُرْثُن (ويسميها أيضا السِّباع) ، ذوات الجناح . وتتألف شاء الوحش عنده من البقر والظِّباء والأوعال ، وذوات البرثن من الأسد والذئاب والثعالب والضِّباع ، وإخال أنه يضم الأرانب إليها . ولا تأخذ ذوات الجناح صورة واضحة عنده ، ولا تتحدد معالمها ومجالها كل التحدد ، ولكن يبدو أنها تتألف من النعام والجراد والنحل .

وقسم قطرب كتابه إلى ثلاثة أقسام وفقا للأمور الثلاثة التى أقام الفروق عليها . وذكر في كل قسم جميع الأصناف التى ذكرت من الحيوان .

فذكر في القسم الأول الأسماء التى تطلق على هذه الحيوانات وأولادها ؛ وبدأ بالحمير ؛ فقال : « يقال للحمار : عَيْر ، ومِسْحَل ، وابن مِقْلاء ، وللأنثى : أتان ، وعَيْرة ، بالهاء . وقال الراجز :

يفيشُها بفَيْشة قَليق فَيْشَ الحمارِ عَيْرَةً بحُوقِ

ويقال لولده : جَحْش ، وتَوْلَب ، وفَرأٌ — ياهذا — بالهمز ، وفَرا . وفي مثل لهم : كلُّ الصَّيد في بطن الفَرا . ويقال له : العِفْو والعُفو والعَفا — يا هذا — لغة . . . . . » .

وتلاها بشاء الوحش على اختلاف أنواعها ، فقال : « يقال للبقرة : بَقَرة ، ومَهَاة . والمهـاة : البقـرة الوحشية البيضاء . وفَنَاة : البقرة الوحشية . والخَزومة : البقرة في لغة بعض أهل اليمن . والجميع الخَزَائم . ويقال لولدها حين تضعه : طَلاً ، وهى تجرى مجرى النعجة . فإذا مشى واشتد قيـل : ذَرَع ، وفَرير ، وقد ذكر في بيت لبيد . وقال ذو الرمة :

وكـلُّ موشّـاةِ القَوائمِ نَعْجةٍ لهـا ذَرَع قد أحْرزَتْه ومُطْفِـلِ

وأما البَهْزَع فهو الجَذَع من البقر ، وهو الفَزّ . . . » .

وأعقبها بذوات البُرْثُن حيث قال : « ومن ذوات البراثن قالوا : أَسَد ، والأنثى أَسَدة ، وأُسْد للجميع . وقالوا للأنثى : لَبُؤَة ولَبْأَة ولَبَة ولَبَـاة ولَبْوة بغير همز . . . ويقال لجِرْوه : الشِّبل ، والأنثى شِبْلَة ، والجميع أَشْبُل . . . » .

وختم بذوات الجناح ، إذ قال : « فقالوا في النعام : الظّـليم : الذَّكَر ، والهَيْق ، والهِقْل ، والنِّقْنِق ، والهِجَفّ ؛ لطوله وعِظم بطنه ، والهِزَفّ ، والنعامة للأنثى . وقالوا للنعامة هذه : شاة . وقال الراجـز :

تُحْسَـب بـين الفجـر والظلامِ إذا بَـدا شـاةً من النَّعـامِ

ويقال للأنثى منها هَيْقَة ، وهِقْلَة ، ونِقْنِقة . . . » .

وكذا فعل في القسمين الآخرين من الكتاب . فبدأ القسم الخاص بأسـماء الجماعات بالحمير فقال : « ويقال له من الحمير : المُعيرة ، والمَعْيوراء ، والعانة ، والقَنْبَلة ، والكُسْعَة ، والنـّخـّة . . » .

وتلاها بشاء الوحش ، فقال : « قالوا في شاء الوحش . . صُوار وصِوار وصِيـار ، وسِرْب من البقر : لمـا بين العشرة إلى العشرين إلى الثلاثـين ونحوها . . . . » .

ثم . . « ذى البراثن ، قالوا : صُوّة من السباع . والعَرْجلة أيضا : الجماعة من الناس ، وربمـا قالوا في السباع . . » .

والختام لذوات الجناح : « قالوا في النعام : خَيْطى وخيطان وخيُوط لجماعتها ، وإنما أُخذ من قولهم : هذه نعامة تَخيط ، أي تمشي . . . » .

وقال في قسم الأصوات : « وأما الحمار فيقال : نَهَق ، وينْهِق ، نَهَق يَنْهُقُ نَهيقا ونُهاقا ، وشَحَج أيضا يَشْحَج شَحيجا ، وشُحاجا : إذا أراد أن ينهق . . . » .

والنعجة تَثْأَج ، والشاة تَخور أيضا ، والبقرة تثأج وتخور وتَجْأَر ، وهو أرفع صوتها . قال الله عز وجل في كتابه : « عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ » .

الأسد زأَر ويزئِر ويَزْأَر زئيرا ، وأَزْأَر أيضا يُزْئِرُ ، ونأم الأسد يَنْئِمُ . والعَزيف أيضا صوته . والزَّمْزَمة والزَمْجَرة وهما من صدره إذا لم يفصح . .

وأما النعام فيَعِرّ ويَزْمِرُ ، وهو العِرار والزِّمار . وقال الطرماح :

يدعو العِرارُ بها الزِّمار كما اشتكى أَلِمٌ تُجاوبُه النساءُ العُوَّدُ

وجلي أنه أفرد كل حيوان من شاء الوحش ، وذوات البرثن ، وذوات الجناح ، وأنه لم يخلط بعضها ببعض ، بل راعى في التعرض لها ترتيبا معينا ، التزم به ولم يحد عنه .

والغريب أنه لم يتعرض للإنسان ، ولم يذكر ما يطلق عليه من أسماء في الأحوال التي عالجها ، على الرغم من تصريحه بذلك في عنوان الكتاب .

وراعى قطرب فيما أورده من ألفاظ : أن ينبه على مؤنث المذكر منها ، ومذكر المؤنث ، وعلى جمع المفرد مذكرا كان أو مؤنثاً ، وعلى ما يرد فيه من لغات . والتفت في بعض الأحيان إلى ما يشتق منها من أفعال ، فكان يذكر الماضي منها والمضارع والمصدر . وأتى ببعض المترادفات في أحيان أخرى . والشواهد الشعرية كثيرة في الكتاب . ونسب أكثر هذه الشواهد إلى قائليها ، وإن أهمل ذلك في بعضها ، وعلق على بعضها الآخر . ولم يستشهد بالآيات القرآنية غير في موضع واحد .

ذلك هو كتاب الفرق لقُطْرُب الذى لا يضم سوى إحدى عشرة صفحة .

وألف في الفروق من علماء اللغة الذين طواهم الموت في القرن الهجرى الثالث أبو عبيدة معمر بن المثنى (مات بين سنتى ٢٠٩ و ٢١٣) ، وأبو زيد سعيد بن أوس الأنصارى (مات سنة ٢١٤ أو ٢١٥) ، وأبو زياد يزيد بن عبد الملك الكلابى (مات سنة ٢١٥) ، وأبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى (مات بين سنتى ٢١٤ و ٢١٧) وأبو يوسف يعقوب بن السكيت (مات بين سنتى ٢٤٣ و ٢٤٦) ، وأبو حاتم سهل بن محمد السجستانى (مات ٢٥٥) ، وأبو محمد ثابت بن أبى ثابت (وراّق أبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى بين سنتى ٢٢٣ و ٢٢٤) وربما لا أخطىء حين أضم إليهم عبد الله بن عبد العزيز البغدادى الضرير (تلميذ أحمد بن جعفر الدينورى المتوفى سنة ٢٨٩) .

وكل هذه الكتب — غير واحد — ضائع ، لا أعرف له ذكرا . ولا يعنى هذا أن أحداً لم يتلقها عن مؤلفيها ، بل بقيت رواية كتب الأصمعى ، وابن السكيت وابن أبى ثابت ، حتى وصلت إلى أبى على القالى . فانتقل بها إلى الأندلس ورواها عنه تلاميذه ، إلى أن ذكرها أبو بكر محمد بن خير الإشبيلى في فهرسة مروياته . وليس من المستبعد أن تكون في بعض المكتبات التى لا نعرف محتوياتها .

والكتاب الباقى منها هو مؤلف الأصمعى ، الذى حققه ونشره الدكتور دافيد هينريش ميلر في سنة ١٨٧٦ م . ويؤكد كتاب الأصمعى الصلة التى استنتجتها بين عنوانى كتاب قطرب ، إذ أنه يحمل العنوانين معا : أحدهما في صفحة العنوان ، والثانى في صدر المقدمة .

ويختلف كتاب الأصمعى في تقسيمه — كل الاختلاف — عن تقسيم كتاب قطرب إذ تناول المؤلف فيه موضوعات أكثر من التى عالجها قطرب ، وتبلغ تسعة عشر موضوعا ، جعلها في ثلاثة وعشرين قسما . وهذه هى موضوعات الكتاب : ما اتصل بالفم ، ثم ما اتصل بالشَّفَة ، ثم بالأنف ، ثم بالظفر ، ثم الرِّجل ، ثم الصدر ، ثم الثَّدْى ، ثم الفَرْج (ووضعه في قسمين : أولهما خاص

بالذكر والثاني بالأنثى) ثم المخاط (وآخر للبصاق) ، ثم العَرَق ، ثم الجلوس ، ثم التنخّط ، ثم الغُلمة ، ثم النكاح ، ثم الحَمل ، ثم الولادة ، ثم أسماء الأولاد ، ثم الجماعات ، ثم الأصوات (ووضعها في ثلاثة أقسام : أحدها لذوات الحافر والظلف ، والثاني للطير ، والأخير للسباع) .

ويتضح من هذا البيان أن الأصمعي وضع بعض الأمور المتقاربة متعاقبة ، ولم يراع أي ترتيب في الأمور الأخرى .

ونهج في الأقسام الأولى من الكتاب على ذكر الأسماء ، وفي الأقسام الأخيرة على ذكر الأفعال . وراعى في الأسماء أن يبين المفرد منها والجمع ، بل ذكر في أحايين جموع القلة والمثنى منها . وأبان في الأفعال صيغ الماضي والمضارع والمصدر . وكثيرا ما أشار الى المذكر والمؤنث ، وما في الألفاظ التي أوردها من لغات ، وضبطها . والتفت في بعض الأحيان إلى ما فيها من مسائل لغوية ونحوية ، وإلى ما يرادفها من ألفاظ . واتخذ شواهده من الشعر ، والأمثال ، والتعبيرات الخاصة ، والأحاديث النبوية . غير أن الشعر عنده أقل مما كان عليه عند قطرب . وتشابه منهجهما فيما أوردا من شعر .

قال : « وهي شَفَة الإنسان — مفتوحة — وهما الشفتان ، والجميع الشِّفاه » والمِشْفَر من البَعير ، وهما المِشْفران ، والجميع المشافر . والجَحْفلة من ذوات الحافر ، وهما الجحفلتان ، والجميع الجَحافل . والمِقَمَّة المِرَمَّة من ذوات الأظلاف بالكسر والنصب . والخَطْم والخُرْطوم من السباع . والمِنْقار من الطير ، والجميع المناقير . فإن كان من سباع الطير فهو المِنْقار والمِنْسر . وربما أقيم بعض هذه الأشياء مقام بعض إذا اضطر الشاعر الى ذلك..

يقال : جَلس يجلس جُلوسا ، وقعد يقعُد قعودا . ويقال للفرس ولكل ذي حافر : رَبَض يربِض رُبوضا . ويقال للطير : جَثَم يجثِم جُثوما . ومَجْثِمة : هو الموضع الذي يجثم فيه . ويقال للبعير : برك يبرُك بُروكا ... » .

ذلك هو كتاب الفرق للأصمعي ، الذى يكبر في الحجم كتاب قطرب بما يقارب نصفه ، إذ يضم من الصفحات خمس عشرة .

وألف في الفروق من الرجال الذين غيبّهم القرن الرابع : أبو إسحاق إبراهيم بن السَري الزجاج (مات بين ٣١٠ و ٣١٦) ، وأبو الطيب محمد بن أحمد الوشاء (مات ٣٢٥) ، وأبو بكر محمد بن عثمان الجعد (تلميذ ابن كيسان المتوفى ٣٢٠) وابن جنى (مات ٣٩٢) ، ومعاصره أبو الجود القاسم ابن محمد العجلانى .

ولعلى لا أتجاوز الصواب حين أضيف إليهم أبا الفضل محمد بن أبى غسان البكرى ، وأحمد بن إبراهيم بن معلى .

ولم نعثر إلى يومنا هذا على أى كتاب من كتبهم . ولا أعرف عنها غير ما قاله ياقوت عن كتاب ابن معلى : « كتاب حسن غريب » .

وألفَ أصحاب الموسوعات اللغوية المرتبة على الموضوعات — مثل أبى عبيد في الغريب المصنف ، وابن سيده في المخصص — أن يعقدوا في موسوعاتهم أبواباً للموضوعات التى يخصص لها غيرهم من اللغويين رسائل ، مثل خلق الانسان ، والخيل ، والإبل . ولكن أحدا منهم لم يجعل للفروق بابا ، ولعلهم اعتقدوا أن تخصيصهم كل حيوان بكتاب أو بأبواب من موسوعاتهم أغنى عن إبانة الفروق.

ولكن أحمد بن يحيى المعروف بثعلب (٢٠٠ — ٢٩١ هـ) جعل الباب الأخير من كتابه الصغير « الفصيح » للفروق . وعالج فيه الأسماء التى تطلق على الشفاه ، والأظافر ، والأثداء من أعضاء الحيوان ، وعلى الشهوة والموت والتبرز من أصناف الحيوان .

وضبط ما أورده من ألفاظ ، وأشار إلى المفرد منها أحيانا ، مثال ذلك قوله : « هى الشَّفَة من الإنسان ، ومن ذوات الخُف المِشْفر ، ومن ذوات الحافر

الجَحْفَلة ، ومن ذوات الظِّلْف المِقَمَّة والمِرَمَّة ، ومن الخنزير الفِنْطيسة ، ومن السباع الخَطْم والخُرطوم ، ومن الكلب البِرْطيل ، ومن ذى الجناح غير الصائد المِنْقار ، ومن الصائد المِنْسَر » .

ووجد إلى جانب هذا اللون من الكتب كتب أخرى في الفروق ، ولكنها عنيت بالفروق بين الحروف المتقاربة مثل الضاد والظاء ، أو بين المترادفات اللغوية ، وليس الحديث عنها .

انتهى بحمد الله .